المقدمة

كنت قد تقدمت إلى مجلس كلية الآداب بجامعة القاهرة، برسالة عن الخليل ابن أحمد الفراهيدي ومذهبه في الدراسة اللغوية والنحوية. وكان لا بد لي - وأنا أدرس الخليل - أن أعرض للشيوخ الذين أخذ عنهم، والتلاميذ الذين لازموه، وأخذوا عنه، وكنت قد رأيت أن من تلاميذه عالمين من أعلام الدراسة اللغوية والنحوية، هما سيبويه، الذي انتهت إلى أنه رأس المدرسة البصرية، والكسائي الذي رأيت أنه رأس المدرسة الكوفية.

وكنت قد قصرت بحثي في دراسة الخليل على أعمال سيبويه، وكتابه، لأن كتابه - فيما رأيت - في مقدمة المصادر التي يرجع إليها دارس أعمال الخليل، فقد سجل سيبويه في كتابه أقوالا للخليل، عددتها - بحق - أصول الكتاب وقواعده التي انبنى عليها.

وفي الفترة التي كان سيبويه يرسم حدود مدرسة، كان لها أنصار وتلاميذ، كان علي بن حمزة الكسائي يرسم حدود مدرسة أخرى كان لها أنصار وتلاميذ أيضاً. وليس غريباً أن تسلك كل مدرسة منهما سبيلا بعينها، فقد كان لثقافة الرئيسين أثر في تباعد السبيلين، وتباين المنهجين.

وكنت في أثناء دراستي للخليل أضيق أحياناً بما سلكه البصريون الذين جاءوا بعده، ممن لم يتح لهم ما أتيح للخليل، من وفرة في المصادر، ومن فكر مبدع ناقد، ومن حس دقيق بالعربية، وراحوا يدرسون النحو في غير منهجه، ويدعمون أصوله بأصول المنطق، وقواعد العقل، فذهبوا بريقه، وعصفوا بروحه، وتناولوه على أنه صناعة لفظية تقوم على البراعة في تصريف الألفاظ، واختراع

القوالب ، حتى عاش فيه الجمود ، وأصيب بالجدب المخيف .

ولكن موضوع الدرس إذ ذاك كان قد حد من خطواتي ، فلم أستطع متابعة الدرس بأطرافه ، فقد كان من أعمال علي بن حمزة الكسائي ، وأعمال تلاميذه مايلفت النظر إلى هذه المدرسة النامية ، التي وقفت موقف المنافس القوي للمدرسة البصرية ، ويهيب بالدارس إلى درس أعمق مما انتهى إليه القدماء وأتباع القدماء من المحدثين . . فلا غنى للدارس عن أن يقف على أسس المنهجين ، ليستخلص منهما جميعاً أساساً صالحة لبناء جديد ، يقوم على الاصلاح الشامل لمنهجه ، والمجديد الناقد لأصوله ، ولا غنى لداع إلى إصلاح ، أو تجديد عن أن يلم بالمذهبين معاً ، ويقف على خصائص المدرستين جميعاً ، دون التقيد بما قيل عن هذا المذهب ، أو ذاك ، ودون التأثر بعاطفة تدعو إلى تقريب هذا ، واستبعاد ذاك

فقد كنت - وأنا أدرس الخليل - ألمح في آراء الكوفيين منافذ يطل منها الدارس على فقه العربية وحس بطبيعتها ، وأحسست أن منهجهم في هذه الدراسة يصلح أن يكون قاعدة لبناء جديد ، فأقبلت في هذه الرسالة على الاستزادة مما كنت ألمح ، ولم أتقيد بما قاله الخصوم والمؤيدون ، ولم أبدأ دراستهم كما بدأ القدماء ، فرجعت إلى الوراء أتتبع تاريخ هذه المدرسة النامية ، فان بدا أني اتفقت مع القدماء في ماوصلوا إليه فقد خالفتهم في كثير منه ، وخالفت كثيراً من المحدثين الذين آمنوا بالقدماء ، ولم يبذلوا في سبيل البحث مجهوداً ذا غناء ، واضطررت من أجل الالمام بهذه المدرسة ، التي عاصرت المدرسة البصرية في أقوى مراحلها التطورية ، أن أدرس النحو من أوله ، وأتتبع - ما أمكن - خطوات الدرس اللغوي لأصل معه في تطوره إلى ما وصل إليه عند نشأة هذه المدرسة ، وهذا هو الذي دعاني إلى أن أمهد للبحث بهذا التمهيد ، الذي صدرت به الرسالة ، والذي رأيت أنه ضرورة لا مفر لي منها .

ورأيت كما رأى القدماء - أن النحو في أول نشأته بصري تعاون على إنشائه

دارسون بصريون ، حتى انتهى إلى الخليل فحمل العبء أكثره ، وهيأت له ثقافته الواسعة ، وعقليته الفائقة أن يكون رأس مدرستين تتمم إحداهما الأخرى ، ولهذا رأيت - كما سوف يتبين القارئ - أن أعقد فصلا أتناول فيه بإيجاز مصادر الدراسة البصرية ، والمنهج الذي انتهجه البصريون فيها ، ليسهل على الدارس أن يوازن بين المنهجين ، ويفاضل بين الدارستين .

وقد وجدت من إرشاد أستاذي الجليل - الأستاذ مصطفى السقا - وتوجيهه ما أعانني على بلوغ كثير مما كنت أهدف إليه فإليه أتوجه بالشكر والتقدير .

ثبت تفصيلي لمواد البحث

(تمهيد)

(١) الكوفة ، من ١٧ - ٣٢

أصل التسمية بهذا الاسم . . موقع الكوفة - خصوبة أرضها - الديارات التي حولها قبل تعميرها .

الهجرة الى الكوفة :

الهجرة الأولى - الهجرة الثانية - انتقال المسلمين إليها بعد تعميرها - سكانها - العناصر الفارسية - العناصر السريانية - عناصر من النبط - اليهود والنصارى - الأعمال التي اشتغل فيها سكانها - الصيارفة - وقفة عند مزاعم مانيون .

بين الكوفة والبصرة :

كانت الكوفة متجه الأنظار - كثرة الصحابة الذين انتقلوا إلى الكوفة وتعليل ذلك - الفوارق الطبقية في الكوفة ، وتعليل وجودها فيها دون البصرة .

(٢) كتاب الله والمصاحف ، من ٣٢ - ٣٥

الدوافع التي دفعت عثمان إلى توحيد النص القرآني - المقرئون من الصحابة والتابعين .

(٣) مدرسة القرآن في الكوفة ، من ٣٥ - ٣٩

عناية المسلمين بكتاب الله الكريم - توحيد نصه - إعرابه - إعجامه - وضع الخليل علامات جديدة للاعراب - عناية الكوفة بالقراءات ومظهر ذلك .

أ - مدرسة القراءة والاقراء ، من ٣٩ - ٤٣

أبو عبد الرحمن السلمي - زر بن حبيش - عاصم بن أبي النجود - حمزة ابن حبيب الزيات - علي بن حمزة الكسائي .

مدرسة الفقه والفقهاء من ٤٢ - ٥٠

ظهور الرأي في التشريع الاسلامي - بين العراقيين والحجازيين - الطبقة الأولى من الفقهاء - الطبقة الثانية « عامر بن شراحيل الشعبي - سعيد بن جبير - إبراهيم النخعي » .

جـ - مدرسة النحو والنحاة من ٥٠ - ٦٢

العوامل التي نهضت بالدراسة اللغوية - ظهور اللحن واللحانين - سبق البصرة إلى الدراسة النحوية - النواحي الثقافية التي تفوقت بها الكوفة على البصرة - لم تعرف الكوفة نحوياً بالمعنى الاصطلاحي قبل الكسائي - تعليل سبق البصرة إلى الثقافة الأجنبية - طابع الكوفة عربي إسلامي .

(٤) منهج الدراسة في البصرة ومصادرها من ٦٢ - ٨٣

آراء العلماء في نشأة اللغة - رأي الخليل بن أحمد في نشأتها - ظهور القياس في الدراسة البصرية عند عبدالله بن ابي إسحاق ، وعيسى بن عمر - منهج الفراء ومنهج المتكلمين - الخصومة بين المحدثين وغيرهم . مصادر الدراسة البصرية - نقد المنهج البصري .

الباب الأول

مدرسة الكوفة النحوية

الفصل الأول

نشأتها

من ٨٥ - ٩٤

١ - الاتصالات الثقافية بين الكوفة والبصرة .. التنافس بين المصرين .

٢ - بداية المدرسة الكوفية عند القدماء .. مناقشة ما جاء في ضحى الاسلام .. الدراسة البصرية تبتدىء بأعمال سيبويه .. تخرج الكوفيين بشيوخ بصريين .. البصريون القدماء هم المصدر الأول للمدارس النحوية .

الفصل الثاني

رجال مدرسة الكوفة

من ٩٥ - ١٢٠

(١) الكسائي والفراء هما المؤسسان للمدرسة الكوفية النحوية .. مناقشة القدماء في إثباتهم نحاة كوفيين قبل الكسائي .. جدول بأسماء النحاة الذين

تألفت منهم مدرسة الكوفة ـ بداية المدرسة الكوفية ـ امتدادها إلى ما بعد ثعلب بكثير ـ النحاة الكوفيون الذين جاءوا بعد ثعلب ، وكتبهم ـ المصادر التي حفظت لنا النحو الكوفي .

(٢) علي بن حمزة الكسائي من ١٢٠ ـ ١٤٣

أخذه عن الخليل ـ تجواله في البوادي العربية ـ شهرته في القراءة والنحو ـ تأديبه أولاد الخلفاء ـ الكسائي هو الواسطة بين الكوفيين والقصور ـ وفاته عند رأي أحمد أمين في تعليله تقريب الخلفاء لنحاة الكوفة ـ مناظرات الكسائي مع البصريين ومؤازرة السلطان اياه .

آثاره :

نظرة عابرة في كتابه المنسوب إليه : « ما تلحن فيه العوام » .

شيوخه وتلاميذه

التجاوب بين الأستاذ وتلميذه ـ الشيوخ الذين تأثر بهم تلاميذه : الفراء اللحياني ـ هشام بن معاوية الضرير ـ علي بن المبارك الأحمر .

منهجه في دراسة النحو :

نحوه لم يتأثر بالفلسفة الكلامية تأثراً مباشراً ـ عنايته بأخبار الآحاد ـ عنايته بالقياس ـ تأثر الكسائي بالبصريين ، وإخراجه الحديث عن مصادر دراسته .

(٣) يحيى بن زياد الفراء : من ١٤٤ ـ ١٧١

تلمذته لأبي جعفر الرواسي ـ تلمذته للكسائي ـ ذهابه إلى البصرة ولقيه يونس بن حبيب ـ ثقافته الكلامية ، واتصاله بالمأمون ـ كتاب الحدود وأسباب تصنيفه .

تلاميذه :

سلمة بن عاصم ـ الطوال ـ محمد بن سعدان .

نحو الفراء :

مؤلفاته ـ كتاب الأيام والليالي ـ كتاب معاني القرآن ـ نحو الفراء هو المصدر الأكبر للكوفيين ـ آراؤه التي انتقدها الكوفيون .

منهج الفراء في دراسة النحو :

منهجه هو منهج الكسائي ـ تأثره بالفلسفة الكلامية .

مصادر دراسته :

هي المصادر التي كان الكسائي يعتمد عليها : « القرآن ـ القراءات ـ الرواية اللغوية » .

بين الكسائي والفراء :

اختلاف نحو الفراء عن نحو الكسائي شكلاً وموضوعاً ـ أمثلة لاختلافهما ـ اختلافهما لا يمس وحدة المنهج العام عندهما .

(٤) أحمد بن يحيى ثعلب : من ١٧٢ ـ ١٩٠

تلمذته لكتب الفراء واستيعابه إياها حفظاً ـ شهود عصر ثعلب احتدام المنافسة بين المدرستين ـ خصومته مع المبرد ـ ترويجه لمذهب الكوفيين ـ ثعلب يمثل طرازاً كوفياً أصيلاً ـ أثره في استمرار المذهب الكوفي.

منهجه في دراسة النحو :

عنايته بالنقل عن شيوخه وعن العرب الذين وثق بهم ـ مناظرته مع المبرد تؤيد ميله عن التفلسف في القضايا النحوية ـ آراؤه النحوية التي تابع فيها شيوخه ـ آراؤه التي تفرد بها .

تلاميذه :

أكثر تلاميذه ممن خلط المذهبين - أبو بكر بن الأنباري - منزلة ابن الأنباري عند القدماء - بعض الآراء التي رووها عنه كتب النحو.

الباب الثاني

نحو الكوفة

تمهيد من ١٩٣ - ١٩٥

نحو الكوفة كنحو البصرة ، دراسات مختلطة - تعليل ذلك .

الفصل الأول

الدراسة اللغوية

« ١ » الدراسة الصوتية من ١٩٦ - ٢١٠

ما حققه نحاة المدرستين من الدراسة الصوتية - بدء المحاولة في الأصوات بعمل الخليل - ما حققه الكوفيون من هذه الدراسة - الفراء وأثره فيها - آراء للفراء تتعلق بالأصوات . ظاهرة الادغام - تأثر الأصوات بعضها ببعض - ظاهرة الابدال - التفسير الحديث لهذا التفاعل بين الاصوات .

(٢) بنية الكلمة العربية من ٢١٠ - ٢٣٥

دراسة البناء هي الخطوة التالية لدراسة الأصوات - كثير من القدماء لم يفتبهو الما بين الحركات وحروف اللين من قرابة - الدراسة الصوتية تعين على فهم الظواهر اللغوية - مذهب الخليل في الهمزة - مذهبه في القلب المكاني - المواطن

التي قال بالقلب المكاني فيها - للكوفيين في الهمزة آراء خاصة - اختلاف القبائل العربية في الهمز .

كيف تتألف الكلمات :

المجرد والمزيد - البناء عند الكوفيين ثلاثة أصول فقط - مقارنة بين رأيهم ورأي المحدثين - أبنيه ثنائية - الأسماء الخمسة - وقفة عند رأي الأستاذ إبراهيم مصطفى فيها - مقارنة بين الساميات فيها - كلمات أخرى شذت عن البناء العام عندهم - الضمائر - أسماء الأشارة - الأسماء الموصولة - مقارنة بين ما ارتآه الكوفيون والبصريون فيهن وبين ما توصل إليه المحدثون - وظائف هذه الكنايات .

(٣) الاستعمال وأثره في البناء العام من ٢٣٥ - ٢٧٤

اعتماد الكوفيين على الملاحظة والاختبار في داخل اللغة - الكوفيون أكثر انتفاعاً بالمصادر اللغوية من البصريين ، اللغة عند الكوفيين تتأثر بالتطور ، وتخضع للاستعمال ، بعض الأمثلة لتأييد هذا الزعم ، مناقشة بعض القدماء في انتصارهم للمذهب البصري في مسائل خاصة ، رأي الكوفيين في السين وسوف ، أمثلة لأدوات عربية ، كانت أفعالا ، أو أسماء ، ثم تحولت بالاستعمال إلى أدوات .

النحت والتركيب :

التركيب في اللغات السامية قليل - الفرق بين التركيب والنحت - اشتراك التركيب والنحت في ملاك واحد - الأصل الذي انبنى عليه التركيب والنحت - الفراء أكثر الكوفيين عناية بتفسير الظواهر العامة .

منحوتات : لن ، ليس ، لكن ، الهم ، إلا في الاستثناء ، لهنك .

مركبات : مهما ، مهمن ، حيذا ، كم .

الفصل الثاني

المدارس النحوية

«١» من ٢٧٥ - ٢٨١

تقسيم الكلمة عند الكوفيين والبصريين - والكوفيين في أقسام الفعل - ليس فعل الأمر قسماً بذاته عند الكوفيين - اسم الفاعل هو القسم الثالث للأفعال - تسمية الكوفيين إياه فعلاً دائماً - الكوفيون يسمون الحرف أداة .

«٢» الاعراب وعلاماته من ٢٨٢ - ٣٠٠

جدل القدماء في علامات الاعراب - رأى قطرب ومخالفته لجمهور النحاة - آراء المستشرقين والمحدثين العرب في علامات الاعراب - رأى الأستاذ إبراهيم مصطفى - رأى الأستاذ « يوهان فك » - رأى الدكتور أنيس ومناقشته .

علامات الاعراب عند الكوفيين حركات وحروف - الكوفيون لم يفرقوا بين علامات الاعراب وعلامات البناء .

«٣» العوامل من ٣٠٠ - ٣١٧

العامل الفلسفي - العامل التوقيفي - العامل اللغوي - فكرة العامل تسربت إلى النحاة من ملاحظة الخليل والفراء ومن حذا حذوهما - تأثير الحروف في الحروف والكلمات في الكلمات أساس التفكير في العامل عندنا - أقوال للفراء تؤيد هذا الزعم .

« ٤ » عوامل الاعراب عند الكوفيين ، ص ٣١٨ - ٣٤٧ .

أ ـ العوامل اللفظية :

الأفعال . الأسماء . الأدوات . أدوات الجر . الكوفيون يذهبون إلى نيابة بعض الحروف الخافضة عن بعض . قرار مجمع فؤاد الأول للغة العربية في التضمين . أدوات النصب . أدوات الجزم . الكوفيون يقصرون إعمال أدوات الشرط على فعل الشرط وحده . لولا عاملة رافعة عند الكوفيين .

ب ـ العوامل المعنوية :

النحو الكوفي غني بالعوامل المعنوية : الاسناد . الفاعلية ـ المفعولية ـ التجرد عن الناصب والجازم ـ الخلاف .

مقالة الخليل في نصب المستثنى بالا هي مصدر القول بالخلاف ـ المواضع التي ينصب بالخلاف عندهم فيها ـ الملاك الذي أخذوا به في النصب على الخلاف يحملنا على التوسع فيه ، حتى يشمل موضوعات أخرى ـ العامل الصوتي وأثره عند الكوفيين ـ عامل الانسجام الموسيقي .

« ٥ » المصطلح النحوي بين الكوفيين والبصريين ص ٣٤٨ - ٣٦٠

مصطلحات كوفية لم يعرفها البصريون : الخلاف ـ أحرف الصرف ـ مصطلحات بصرية لم يعرفها الكوفيون : لام الابتداء . اسم الفعل ، المفعول المطلق ، وله ، وفيه ، ومعه ـ مصطلحات كوفية اصطلح البصريون عليها بعبارات أخرى : الجحد . المحل أو الصفة . الترجمة والتبيين . الفعل الدائم . الأدوات . الخفض ، المجهول . العماد . حروف الصفة . النعت . الادغام « بالتخفيف » . المكنى .

حروف الصلة أو حروف الحشو . النسق . الرفع والنصب والخفض والجزم .

٦ - ما تدارسه الكوفيون في النحو العربي من ٣٦٠ - ٣٧١ .

تصنيف الزيادات في أصناف - أدوات لم يعرفها البصريون - معان جديدة لأدوات تداولها البصريون والكوفيون - وجوه إعرابية وبنائية جديدة .

الباب الثالث

مصادر المدرسة الكوفية ومنهجها

الفصل الاول

مصادر المدرسة الكوفية

من ٣٧٥ - ٣٩٧

النحو البصري - لغات الأعراب - لغات أخرى أباها البصريون - الشعر العربي - أمثلة لأحكام بنوها على ما جاء في الشعر العربي .

لم يعن الكوفيون ولا البصريون بالتفريق بين أسلوب الشعر وأسلوب النثر - الاعتماد على الشعر وحده كان سبب الاضطراب في بعض الأحكام .

القراءات من مصادر الكوفيين الهامة - موقف البصريين من القراءات - تأويلهم بعض القراءات ، وتغليطهم بعضها الآخر - تمسك الكوفيين حتى بالشاذ منها - أحكام استند الكوفيون فيها إلى القراءات - الأسباب التي حملت الكوفيين على الاهتمام بالقراءات - اتفاق الكوفيين مع البصريين في رفض الاستشهاد بالحديث .

الفصل الثانى

منهج البحث عند الكوفيين

«١» من ٣٩٨ - ٤٠٥

القدماء لا يشكون فى وجود مذهب كوفى مستقل . اختلاف الدارسين المحدثين فى ذلك وبيانه . جو تولد فايل أول من شك فى اكتمال هذا المذهب . مناقشته .

«٢» متى نشأت مدرسة الكوفة النحوية ؟ من ٤٠٥ - ٤٠٨

نشأت المدرسة الكوفية بظهور الكسائى النحوى . ابتناء الدراسة الكوفية على ما أفاده الكسائى من دراسته الأولى ، وتلمذته للخليل بن أحمد .

«٣» المنهج الكوفى كما يصوره كتاب الانصاف من ٤٠٨ - ٤١٩

أبو البركات بن الأنبارى نحوى على المذهب البصرى . ثقافته الكلامية الواسعة ، اعتداده بالقياس وغلوه فيه ، مسائل الخلاف فى « الانصاف » هى أشهر المسائل التى اختلفت فيها وجهتا النظر ، لم يؤيد ابن الانبارى الكوفيين إلا فى سبع مسائل . يشك (فايل) فى صحة ما جاء منسوباً إلى الكوفيين من احتجاج ودعاوى ، استشهاد الكوفيين بالمرويات ، واستدلالهم بالنقل ، أسلوب الحجاج الكوفى فى « الانصاف » يؤيد ما رأيناه من إمعانهم فى التتبع اللغوى ، مسائل لم يحتج لها الكوفيون إلا بالنقل ، مسائل احتجوا لها بالنقل ، وساقوا القياس فيها تأييداً للمنقول .

«٤» كيف نشأ المنهج الكوفي ؟ ص ٤٢٠ - ٤٢٩

يقوم المنهج الكوفي على ما استمده من منهج الفراء ، وما استمده من منهج الخليل بن أحمد ، وعنايته بالقياس مذهب الكسائي هو مذهب الكوفيين ، وقد اجتذبته طريقتان مختلفتان : طريقة الفراء وطريقة البصريين القدماء . ليس يونس بن حبيب هو مرجع الكوفيين كما يزعم فايل . وقفة عند رأي (فايل) هذا ومناقشته .

«٥» خصائص المدرسة الكوفية العامة ، ص ٤٢٩ - ٤٤٠

الكوفيون يعتدون بالمثال الواحد . الأمثلة هي مناط القياس عند الكوفيين . يمتاز نحاة الكوفة بفهم العربية فهما لا يستند إلى فلسفات وتكهنات . النحو الكوفي أبعد ما يكون عن الأخذ بأسباب المنطق . حرص الكوفيين على الأخذ بالمسموعات والمرويات أمثلة تؤيد عنايتهم بالنقل . ليس صحيحاً أن البصريين أكثر تصلباً في أمر الرواية من الكوفيين . الكوفيون أوسع رواية من البصريين . الطعن في اتهام البصريين الكوفيين بافساد النحو . تشدد البصريين في الروايات مبالغ فيه .

الخاتمة : في النتائج العامة للبحث

من ٤٤٣ - ٣٧٨

الدعوة إلى إصلاح النحو - دعوة القدماء - دعوات المحدثين ومحاولتهم - محاولة الأستاذ إبراهيم مصطفى - محاولة الأستاذ أمين الخولي - الوقوف على أعمال الكوفيين ضروري لمن يحاول الاصلاح — وقفة عند رأي الأستاذ أمين الخولي في تيسير النحو .

١ - الكوفة

لم تكن الكوفة معروفة بهذا الاسم قبل تمصيرها فلم يسكنها العرب ولا غيرهم وانما كان موضعها جزءاً من الضفة الغربية للفرات الاوسط ، الى الشرق من مدينة الحيرة ، وفي هذا السهل الخصب المحصور بين الفرات شرقاً والبادية الواسعة المطلة على مشارف الشام وعمان غرباً . وكان موضعها ثغراً من ثغور البادية *Caravan city* ومحلا لتبادل البضائع بين الفرس من جهة ، وأصحاب الابل البدو من جهة اخرى ، وللاتصال بين الجماعات العربية المنتشرة في البادية ، وأهل القرى من الآراميين الذين سكنوا هذه المنطقة قديماً .

وقد انتشرت في هذا السهل ، قريباً من هذا الموضع ديارات ودساكر صغيرة ، منها كوفة ابن عمرو ، وهو رجل من الازد ، كان كسرى أبرويز « لما انهزم من بهرام جور نزل به فقراه ابن عمرو ، فلما رجع أبرويز الى ملكه أقطعه ذلك الموضع » (١) وكوفة ابن عمرو هذه هي التي مر عليها سعد بن أبي وقاص ، حين كان يرتاد موضعاً لجنده ، بعد ما كان المسلمون معه قد استوبئوا المدائن واستوخموها (٢)

وكان هناك عناصر سامية من السريان شيدوا ديارات لهم في هذه البقعة

---

(١) لسان العرب مادة كوف

(٢) البلاذري فتوح البلدان ص ٢٨٦ طبعة مصر

وعرفت عندهم بالعاقولا « يا كيولو » وهو الاسم السرياني للكوفة كما يزعم ماسنيون (١)

اما اسم الكوفة فاطلق عليها حين تمصيرها . واختلف المؤرخون في اصل هذه التسمية فقال البكري : « إنما سميت الكوفة لان سعداً لما افتتح القادسية نزل المسلمون الانبار فآذاهم البق ، فخرج وارتاد لهم موضع الكوفة ، وقال : تكوفوا أي اجتمعوا ، والتكوف التجمع (٢) وذكر ياقوت وغيره اقوالا كثيرة أوجهها فيما أرى أنها « سميت كوفة بموضعها من الارض وذلك ان كل رملة تخالطها حصباء تسمى كوفة » (٣)

والذي يقصد اليها من النجف وهي الى الغرب منها على بضعة اميال تقريباً لا يجد في طريقه اليها الا هذه الرمال الحمر التي تخالطها الحصباء ، واكبر الظن ان العرب الذين ارتادوها ووصلوا الى موضعها من جهة الشمال كانوا قد رأوا هذه الرمال في طريقهم فسموها باسمها وكان العرب يسمون « الرملة الحمراء كوفة ، وقد جاء في القاموس المحيط : « الكوفة بالضم : الرملة الحمراء المستديرة او كل رملة تخالطها حصباء »

وقد نمت الكوفة بعد تمصيرها سريعاً حتى كانت في مطلع القرن الرابع حاضرة عراقية كبيرة تتبعها في الادارة بابل وعين التمر (شثاثة) وغيرهما (٤) ثم تقلص ظلها في العهد العثماني فاصبحت « ناحية » صغيرة ، تتبع في إدارتها « قضاء » النجف وظلت كذلك في الادارة العراقية بعد استقرار الحكم الوطني في العراق .

---

(١) ماسنيون : خطط الكوفة .
(٢) البكري معجم ما استعجم طبعة القاهرة ص ١١٤٢
(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٢٩٥
(٤) ماسنيون : خطط الكوفة

وهي الأن في نفس الموضع القديم الذي مصرت فيه ، وان لم تشتمل غير جزء منه ، ولا يزيد سكانها الان على عشرة الاف نسمة ، ارتحل اليها معظمهم من النجف ، وأكثر ما يعتمد عليه اهلها الآن هو التجارة ، لأنها منفذ النجف الى مدن الفرات الاوسط ومصرف تجارتها وأعمالها .

موقعها :

وتم تخطيط الكوفة على يد سعد بن ابي وقاص بعد تخطيط البصرة بسنتين او ثلاث وكان قد نزل بها المسلمون في السنة السادسة عشرة للهجرة (١) او في السنة السابعة عشرة (٢) وقد خطت في وادي الفرات الاوسط الخصيب حيث يكثر النخيل ، ويزدحم على جانبيه ، ويمتد الى مسافات بعيدة بحذاء النهر

وكان العرب يسمون العراق بلاد السواد ، لان المقبل عليه من الغرب كان يرى من بعيد سواداً كثيفاً ، لايزال اليه حتى يعلم ان ماكان يراه إن هو الا هذه السقوف المتراصة من النخيل ، قامت على ضفتي الفرات .

والكوفه تشرف على سهل واسع فيه العشب ، وفيه الازهار والرياحين يساعدعلى نموها ارض خصبة وأمطار غزيرة ، وجداول كثيرة ، تأتي بالماء من النهر الى حيث الدساكر والديارات المبثوثة هنا وهناك ، في تلك البقعة الواسعة ، فاذاجاء الربيع بدت الارض منقوشة بكل لون جميل .

وكان خصب الارض ، ووفرة المياه ، وتعهد السماء اياها بالامطار مما شجع الرهبان ان يبنوا ديراتهم فيها ، فلم تكن الديارات تبنى الاحيث يتوافر الماء ، ويكثر النبات .

---

(١) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٥٩

(٢) تاريخ الطبري حوادث سنة ١٧ هـ ص ٢٤٨٥ طبعة اوربة والبلاذري في البلدان ص ٢٨٤

وهذه الديارات الكثيرة ، المبثوثة هنا وهناك ، قد نظمت حولها الحدائق ونسقت جوانبها بالرياض وزينت بالشقائق والرياحين ، ليساعد جمال المكان على صفاء النفس ورقة الحس وسمو الخيال .

وبظاهر الكوفة منازل النعمان بن المنذر والحيرة والنجف والخورنق والسدير والغريان وما هنالك من المتنزهات والديارات الكثيرة (١)

ومن هذه الديارات : دير هند الذي يقول فيه معن بن زائدة الشيباني .

ألا ليت شعري هل ابيتن ليلة لدى دير هند والحبيب قريب
فنقضي لبانات ، ونلقى احبة ويورق غصن للسرور رطيب

ودير الجماجم ، وهو دير بظاهر الكوفة ، على طريق البر الذي سلك الى البصرة وفيه كانت الوقعة بين الحجاج بن يوسف الثقفي ، وعبدالرحمن بن الاشعث.

ودير اللج ، الذي يقول فيه الشاعر :

سقى الله دير اللج غيثاً فانه على بعده دير الي حبيب
قريب الى قلبي بعيد محله وكم من بعيد الدار وهو قريب

وديارات اخرى كثيرة لامجال هنا لتفصيل الكلام فيها (٢)

وقد استرعى جمال البقعة أنظار العرب المهاجرين اليها فكان محمد بن عمير ابن عطارد يقول « هي مريئة مريعة ، برية بحرية إذا اتتنا الشمال هبت في مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور ، وإذا هبت الجنوب جاءتنا بريح السواد ووردة وياسمينه ، وخيريه ، وأترجه ، ماؤنا عذب ، ومحتشنا خصب . »

وكان الاحنف بن قيس يقول في معرض الموازنه بين منزل أهل الكوفة واهل البصرة — :

---

(١) معجم البلدان ج ٧ ص ٢٩٩

(٢) البكري : معجم ما استعجم من ص ٥٧٠ — ٦٠٧ طبعة القاهرة

« نزل أهل الكوفة في منازل كسرى بن هرمز ، بين الجنان الملتفه ، والمياه الغزيرة والانهار المطردة ، تأتيهم ثمارهم غضة ، لم تخضد ولم تفسد » ونزلنا ارضاً هشاشة في طرف فلاة وطرف ملح أجاج ، في سبخة نشاشة ، لا يجف ثراها ، ولا ينبت مرعاها ، يأتينا ما يأتينا في مثل مرى النعامة . » (١)

على هذه الارض وقع الاختيار ، حين اعتزم سعد بن ابي وقاص ان يرتاد لاصحابه وجنده منزلا ، لانها تجمع بين طبيعة الحضر وطبيعة البدو ، وتصلح ان تكون متحولا من الحياة البدوية الخالصة الى الحياة المدنية الناعمة ولانه يفصلها عن قاعدة الخلافة فاصل طبيعي ، كما كان هذا ملاحظاً في تمصيرهم الامصار .

الهجرة البرية :

بعث ابو بكر الصديق بحملتين لمناوشة الفرس في العراق ، حملة لمناوشتهم في الجنوب ، وأخرى لمناوشتهم في الوسط ، وكانت هاتان الحملتان مبدأ الهجرة الاسلامية الاولى الى العراق . وكان على رأس الحملة الثانية : المثنى بن حارثة الشيباني ، وشيبان قبيلة ربعية عدنانية « تلتقي مع النبي (ص) في نزار . » . « وفي هذه القبيلة همة وإباء وحمية ، كان منها المثنى بن حارثة ، الذي تولى قيادة الجيوش الاسلامية عند غزو العراق في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو الذي حسن لخليفة رسول الله ذلك ، وتولى بهمته اولى الحملات ، فشهد له الصديق في ذلك باحسن البلاء ، ولقد اشتهرت شيبان بالهمة والصبر وحسن البلاء في الجاهلية والاسلام ، حتى كانت ابرز القبائل الربعية وفخرها . » (٢) وحتى قيل فيها : « اذا كنت في ربيعة فكاثر بشيبان ، وفاخر بشيبان وحارب بشيبان . » (٣)

---

(١) ابن الفقيه البلدان ص ٩٦٣ فما بعدها « طبعة اوربة »

(٢) ابو زهرة : ابن حنبل ص ١٣

(٣) تاريخ بغداد ج ٤ ص ٤١٥

ثم كانت الهجرة الثانية ، يوم نادى عمر بن الخطاب بالنفير ، بعد مقتل ابي عبيد الثقفي ، وقد استجاب لندائه جمع كبير ، واستشار فيمن يوليه عليهم فأشير عليه بسعد بن ابي وقاص ، احد الستة الذين رشحهم عمر للخلافة فيما بعد

وكان ابو بكر قد استعمل سعد بن ابي وقاص على صدقات هوزان وأقره عمر عليها [1] فولاه عمر ، وجهز تحت امرته الجيوش ، وكانت عدتهم قرابة تسعة عشر ألفاً ، فاذا بالعرب جميعاً ، من كان يحارب الفرس تحت امرة المثنى ، ومن جاء مدهم تحت امرة سعد - وهم يقفون معسكرين امام الفرس - بضعة الاف وثلاثون الفاً . واخذ هذا الجيش يكتسح أمامه الجيوش الفارسية ويعسف بتحصيناتها واذا به ينتصر عليها في القادسية ، ويتعقبها الى المدائن ، ثم يستولي عليها ، ويستمر في تعقبها ، حتى وقعت معركة جلولاء ، فانتصر العرب انتصاراً مبيناً ، وكانت هذه المعركة هي الفاصلة ،صارت الامبراطورية الفارسية بعدها حدثاً من احداث التاريخ وخبرا من اخباره .

بقي العرب منتشرين في هذه البقاع التي احتلوها ، والمدد التي دخلوها عنوة ، حتى جاءهم الامر من المدينة بتمصير مدينة بربة بحربة لانفصلها عن العاصمة الاسلامية فواصل طبيعية ، فمصروا حينئذ الكوفة وخططوا المسجد الجامع ، ومساجد الاحياء وعلموا على المناهج والسكك .

ولم ينسحب العرب جميعاً من مراكزهم الى الكوفة ولم يكن الانتقال اليها امراً حتما ، بل كان اختيارياً ينتقل اليها من يشاء ويبقى حيث هو من يشاء.

وانتقل سعد بمن اراد الانتقال الى الكوفة وخلف وراءه كثيراً من العرب واغلبهم من بني عبس ، وكتب الى عمر كتاباً قال فيه : (إني نزلت

---

(١) تاريخ الطبري حوادث سنة ١٤ ه ص ٢٢٢١ طبعة اوربة

بكوفة منزلا بين الحيرة والفرات ، بريا بحريا بنبت الحلي والنصي (١) وخيرت المسلمين بالمدائن ، فمن أعجبه المقام فيها تركته فيها كالمسلحة فبقى اقوام من الافناء ، وأكثرهم بنو عبس .) (٢)

اخذ سعد يأمر القبائل المنتقلة الى الكوفة ان تحتل الخطط التي اعدت لها وحطت القبائل رحالها في هذا المصر الجديد ، وكان اكثر الذين انتقلوا فيها من عرب الجنوب ، كانوا يمدون عشرين الفاً ، اثنا عشر الفاً منهم من اليمانيين ، وثمانية الاف من المضريين ، كما تنص عليه رواية الشعبي ، فقد كان يقول : كنا نمد ـ اهل اليمن ـ اثني عشر الفاً وكانت نزار ثمانية الاف) . (٣)

هؤلاء هم السكان العرب الذين سبقوا الى القرار في هذه المدينة الجديدة

وما ان دبت الحياة فى المصر الجديدة حتى توافد الناس عليه من كل صوب فأخذ المجتمع فيه يتعقد شيئاً فشيئاً حتى اصبح من الامصار الاسلامية التي قامت بنصيبها العظيم فى خدمة الاسلام والحضارة .

وكان الى جانب المجموعة العربية في هذا المصر مجموعات أخرى احتاج اليها مجتمع الكوفة أو احتاجت هي الى الاستقرار والعمل فيه فالعرب الاولون الذين سكنوا الكوفة ـ وكانوا هم الاداة العسكرية التي تمت بها الانتصارات ـ يتألف منهم عنصر الاشراف . ومنه طبقة زعماء القبائل وطبقة رؤساء الجيش وأصحاب الالوية ومنه طبقة الجند .

---

(١) الحلي على فعيل بيبس الفضى والنصي ضرب من الطريفة يقال له نصى مادام رطباً فاذا ابيض فهو الطريفة فاذا ضخم ويبس فهو الحلى ، وهو من خير مراتع اهل البادية للنعم والخيل وقد جمع الحلى والنصى في قول الراجز

نحن منعنا منبت النصي ومنبت الضمران والحلي

لسان العرب ـ مادة الحلى

(٢) تاريخ الطبرى ص ٢٤٨٦ طبعه اوربة

(٣) معجم البلدان ج ٧ ص ٢٩٦ وفتوح البلدان للبلاذري ص ٢٨٥ طبعة مصر

اما نواحي الحياة الاخرى التي يحتاج اليها هذا المجتمع فأغلب الظن انه كان يقوم بها عناصر اجنبية من العناصر المغلوبة والعناصر التي هاجرت الى هذا المصر الجديد لتقوم بقسطها في انعاش الحياة الاقتصادية. وكان قوام هذه المجموعات الاجنبية :

١ — عناصر فارسية . . . وهي المجموعة الكبرى بين هذه المجموعات وكان كثير منها يعيش في هذه المنطقة وما جاورها قبل تمصير الكوفة . وكان يشتغل في الزراعة واستغلال الاراضي الصالحة لها فلما تم الفتح على ايدي المسلمين ومصرت الكوفة وفدت جماعات اخرى ، منها اربعة آلاف ممن كانوا يعملون في الجيش الفارسي . وقد شهدوا القادسية مع رستم ورأوا ما آل اليه مصير الامبراطورية الفارسية بعد انهزام جيوشها ومقتل قائدها رستم فارادوا الدخول في الاسلام يحيون حياة المسلمين ويذودون عن الاسلام وقد فاوضوا سعداً في ذلك

«واستأمنوه على ان ينزلوا حيث احبوا ويحالفوا من أحبوا ويفرض لهم في العطاء فاعطوا الذي سألوا وحالفوا زهرة بن حوية السعدي من بني تميم وانزلهم سعد بحيث اختاروا وفرض لهم في الف الف وكان لهم نقيب يقال له ديلم . فقيل حمراء ديلم) (١) ثم اخذ عددهم يزداد ويكثر . حتى قيل : ان جيش المختار بن ابي عبيد كان لا يقل عن عشرين الفاً . معظمهم من ابناء الفرس الذين كانوا يسمون الحمراء (٢)

٢ — وعناصر من السريان . . . وهم الذين كانوا يسكنون في الجزيرة . وفي الديارات المنبثة فيها وفي الديارات التي كانت قائمة في اطراف النجف والحيرة ممن اصبحت لهم صلات بالمجتمع الكوفي وقد كان في الكوفة — كما يقول ماسنيون اسقفان احدهما : نسطوري والاخر : يعقوبي لان نصارى الكوفه كانوا

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٨٨ طبعة مصر

(٢) ابو حنيفة الدينوري: الاخبار الطوال ص ٣١٠ طبعة اوربة ص ٢٥٤ طبعة مصر

طائفتين : نساطرة . وهم الحضر . ويعاقبة وهم البدو . وقد اقام هؤلاء في الكوفة فدخل منهم من دخل في الاسلام . وبقى منهم من بقى فى ذمته . فحفظ الاسلام دماءهم واموالهم وحرياتهم .

٣ — وعناصر من النبط . . . كانوا قد سكنوا في هذه المنطقة . وعرفوها قديماً . وقد اختلف الباحثون فى الاصل الذي انحدر منه النبط . فمن قائل انهم آراميون . وحجتهم في هذا انهم كانوا يتكلمون الآرامية . ومن قائل انهم عرب كانو يستخدمون الآرامية لغة كتابة . (١)

ومهما يكن من امر فان وادي الرافدين كان قد شهد كثيراً منهم . انتشروا في هذه البقعة الواسعة الممتدة من منطقة الكوفة الى البطائح (في جنوب العراق) والمنطقة التي مصرت فيها واسط .

يؤيد هذا ما كان ابو عمر بن العلاء يقوله لاهل الكوفة : (لكم حذلقة النبط وصلفهم ولنا دهاء الفرس واحلامهم) . (٢)

وما كان يرمي به الحجاج من حمق اذ بنى مدينة واسط في بادية النبط ، ثم منعهم من دخولها . فلما مات دلفوا اليها من قريب . (٣)

وما جاء في القاموس المحيط من ان النبط : (جيل ينزلون بالبطائح بين العراقين كالنبيط والانباط) . (٤)

ولا يزال بعضهم يعيش في اماكن متفرقة من الهور الواسع الذي يغطي جزءاً كبيراً من اليابسة في جنوب العراق . عند ملتقى دجلة بالفرات . ويعرفهم العراقيون بالصباء وهم الصابئة من نصارى بوحنا المعمدان . (٥)

---

(١) الدكتور على عبد الواحد وافي : فقه اللغة ص ٦٣

(٢) الجاحظ البيان والتبين ج ٢ ص ١٠٦

(٣) الجاحظ البيان والتبين ج ٣ ص ٣١٨

٤ ـ القاموس المحيط مادة نبط

٥ ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة بطيحة

وليس نبط العراق هؤلاء من أولئك الذين اقاموا لهم دولة امتدت رقعتها من شبه جزيرة طور سيناء الى بادية الشام وأطراف الفرات . لأن هؤلاء ينتمون الى اصل عربي كما مال اليه كثير من الباحثين (١) او خليط من الاراميين والعرب (٢) مستندين في ذلك الى ان لغتهم - كما تدل عليه النقوش النبطية - تشتمل على الفاظ عربية كثيره (٣)

٤ — وعناصر اخرى يهوديه ونصرانية . وفدوا على الكوفة بعد تصييرها من نجران (اليمن) واقاموا في الكوفة في محلة نسبت اليهم . وهي النجرانية (٤)

* * *

كان كثير من هؤلاء الاجانب صيارفة . وكانت المصارفة من بين الاعمال التي كان يقوم بها اليهود والنصارى الذين هاجروا الى الكوفة . وشاركهم المسلمون اخيراً . حتى ان البلاذري تحدث عن هذا فروى ان حوانيت الصيارفة كانت في مسجد بني جذيمة (٥)

غير ان (ماسنيون) خلط بين المصارفة والتعامل بالربا فقال : (حقاً كان صيارفة اللخميين قديماً أساقفة الحيرة . ولكن بعده نرى ظهور بعض الصيارفة من المسلمين بالرغم من النهي الشرعي) (٦)

المصارفة تختلف عن تعاطي الربا كاختلاف البيع عنه لان الصرف حلال والربا حرام والمصارفة والصرف نوع من البيوع إلا ان الفقهاء اشترطوا فيه شروطاً وشروطه التي ذكروها اربعة : (١) ان يكون قبض البدلين قبل الافتراق بالابدان و (٢) ان يكون باتاً لاخيار فيه و (٣) الا يكون بدل الصرف مؤجلا

---

١ ـ الدكتور وافي : فقه اللغة ص ٦٣

٢ ـ اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ١٣٤

٣ ـ تاريخ اللغات السامية ص ١٣٤ وتاريخ الادب المريائي ص ٨

٤ ـ فتوح البلدان للبلاذري ص ٦٦ طبعه اوربة

٥ ـ فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٨٥ طبعة اوربة

٦ ـ ماسنيون خطط الكوفة ص ٢٤ صيدا

و (٤) التساوي في الوزن ان كان المعقود عليه من جنس واحد . فان تبايعا ذهباً بذهب او فضة بفضة مجازفة لم يجز (١)

وذكر الخوارزمي أن مما تفرد به مالك بن أنس إجازته أن يتعامل الصيارفة ويتبايعوا الورق بالورق والعين بالعين بزيادة ونقصان . وان كان ذلك مخطورا على غيرهم (٢) .

وعليه فان الصرف جائز شرعاً وهو من المعاملات المباحة المحللة كالبيع إلا أنه بيع بعض الأثمان ببعض كالذهب والفضة إذا بيع أحدهما بالآخر . أو بيع ما هو من جنس الأثمان كبيع بعض المصوغات ببعض . (٣)

وكان النصارى واليهود يستحلون تعاطي الربا . فيخلطون المصارفة به . لذلك « كره مالك أن يكون النصارى في أسواق المسلمين . لعملهـــم بالربا واستحلالهم له » . (٤)

وما ذكره ماسنيون : من أن النبي (ص) أجاز لبني ثقيف خاصة أن يتعاطوا الربا (٥) فهو ما لا نستسيغه . لأنه مخالف للواقع . فليس في حياة النبي وسيرته وما عرف عنه من صلابة في تطبيق أحـــكام الدين ما يجعلنا نندفع وراء زعم ماسنيون . فليس من المعقول أن يعالج النبي ثقيفا على حساب الدين باجازته لهم أن يتعاملوا بالربا مع ورود النصوص القاطعة من الكتاب والسنة في تحريم الربا مما لا يدع مجالا للشك في أن مثل هذا الزعم إن هو إلا افتراء وافتئات .

* * *

هذا وقد اقطعت القطائع لبعض العرب . كرؤساء القبائل والبارزين منهم .

---

١ ـ شرح البحر الرائق لابن نجيم جـ ٦ ص ٢٩٩ .
٢ ـ الخوارزمي مفاتيح العلوم ، ص ٨ .
٣ ـ شرح البحر الرائق على كنز الدقائق جـ ٦ ص ٢٠٨ .
٤ ـ المدونة الكبرى جـ ٨ ص ١٩١ .
٥ ـ ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٤ ـ صيدا ـ .

وذكرت كتب البلدان كثيراً منها منسوبة الى اصحابها . كالسوادية . نسبة إلى سواد بن زيد بن عدي بن زيد الشاعر وضيعة زرارة بن يزيد بن عمرو من عامر بن صعصعة . وهو صاحب شرطة سعد (١) وغيرها .

ويبدو أن بعض العرب استعملى حياة العمل . فشارك الطبقات العاملة في أعمالهم فكان عمر بن سعد بن ابي وقاص يستغل حماما ينسب اليه كما كان مولاه أعين يستغل حماماً آخر .

وكان لمرزم من بني نهد جبانة يضرب فيها اللبن « ولبنها ردىء . فيه قصب . فربما وقع الحريق بها فاحترقت الحيطان » حتى إن بعضهم أوصى ألا يجعل في قبره لبن عرزمي . (٢)

ومهما يكن من شيء فان هذا المصر الجديد قد وجد فيه من الأعمال ما يحتاج اليه ووجد فيه من أصحاب الأعمال صيارفة وصاغة : ووراقون ـ وهم ناسخوا الكتب ـ ، وعمارون يبيعون التمر ، ومنهم ميثم التمار صاحب علي ابن أبي طالب ، وسواقون ، يبيعون السويق ، وقصارون ، وهم محورو الثياب ، ورسامون ، وذكر ماسنيون أن من بينهم صينيين كانا يقطنان في العاقولا ، وهو الاسم السرياني للكوفة ، بين سنة ٧٥١ ، ٧٦٢ للميلاد ، وهما ، فان ـ شن وليو ـ تسه (٣) الى غير ذلك من الحرف والأعمال التي يحتاج إليها مصر ضم مجتمعاً كبيراً كالكوفة .

بين الكوفة والبصرة :

كان تمصير الكوفة بعد تمصير البصرة بعام أو بعامين ، ومع ذلك فان الكوفة كانت قبلة انظار العرب وزعمائهم وقادتهم ، ففي الكوفة نزلت البيوتات

---

١ ـ ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٩ ـ صيدا ـ

٢ ـ البلاذري : فتوح البلدان ٢٨٤ ـ ٢٩٧ ـ القاهرة ـ .

٣ ـ ماسنيون : خطط الكوفة ، ص ٢٦ ـ صيدا ـ .

العربية الأربعة: آل زرارة الدارميون ، وآل زيد الفزاريون ، وآل ذي الجدين الشيبانيون ، وآل قيس الزبيديون . (١)

وفي الكوفة هبط سبعون رجلا من صحابة الرسول ، ممن شهدوا بدرا ، وثلاثمائة من أصحاب الشجرة (٢) . وكان أبو العباس يقول - بعد أن استمع إلى ابن عياش الكوفي ، وأبي بكر الهذلي البصري في مناظرة طويلة - : «الكوفة بلاد الأدب ، ووجه العراق ، وهي غاية الطالب ، ومنزل خيار الصحابة ، وأهل الشرف» . (٣)

وفي مقدمة من نزلها من الصحابة عمار بن ياسر وعبدالله بن مسعود ، وقد بعث بهما عمر ، ليكون الأول أميرا ، والثاني مؤذنا ووزيرا ، وكان يقول لأهل الكوفة في تعريفهم بهما : «هما من النجباء ، من أهل بدر ، فخذوا عنهما ، واقتدوا بهما ، وقد آثرتكم بعبدالله بن مسعود على نفسي» . (٤)

أما من نزل البصرة من الصحابة فأنس بن مالك وعتبة بن غزوان ، وقد نزل عتبة الكوفة أولا ، مع سعد بن أبي وقاص ثم وجه به بأمر عمر إلى البصرة على رأس بضع مئات من الجنود لحماية الثغور الاسلامية في منطقة البصرة .

لعل السبب في أن تكون الكوفة متجه الأنظار هو أن القيادة العامة لجيوش المسلمين كان مقرها الكوفة ، في المنطقة الوسطى من بلاد السواد ، وأنها كانت مركز الحركات العسكرية وكانت القوى العسكرية في العراق تعتمد على القبائل العربية من جهة ، وعلى بقية من الصحابة المجاهدين ، الذين شهدوا مع النبي (ص) بدرا وغير بدر من الغزوات الاسلامية الأولى من جهة أخرى .

---

١ - ابن الفقيه : البلدان ص ١٧٩ - ليدن - .
٢ - كتاب الطبقات الكبير جـ٦ ص ٤ - ليدن -
٣ - البلدان ص ١٧٢ - ليدن -
٤ - البلدان ص ١٦٤ - ليدن -

وقد استأنف أولئك وهؤلاء الجهاد في سبيل الله ، وكانت الكوفة متجهم ، لأنها موطن الجهاد ، ثم تتابعت الهجرات الى حيث يستوطن المهاجرون الاولون ، من وجوه الصحابة ووجوه القبائل .

ومر على الكوفة زمن كانت فيه قاعدة الخلافة الاسلامية ، وذلك في عهد علي بن ابي طالب ، والقواعد دائماً متجه الانظار من العلماء واصحاب المصالح.

وقد عرفت الكوفة بمكانتها العسكرية حتى كانوا يسمونها « كوفة الجند » ، وحتى كان علي بن أبي طالب يقول عنها : « الكوفة كنز الايمان ، وجمجمة الاسلام ، وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء »[1] ، وكان سلمان الفارسي يقول : « أهل الكوفة أهل الله ، وهي قبة الاسلام [2]

وقيام هذه الجماعات الضخمة من المهاجرين بأمور الدفاع ، وتنظيم الحركات العسكرية شغلهم عن شئون الحياة الحضارية . وأطال عهد البداوة فيهم . وما يستتبع ذلك من بقاء العصبيات والتمسك بأهداب المثل العليا التي كان العرب في باديتهم ينشدونها . كالتغني بالبطولة والتفاخر بالانساب .

وا متتبع ذلك كله أن يكون من السكان العرب في الكوفة طبقة من الملية والاشراف لا يهمهم من الحياة الا ما يتصل بعاداتهم وتقاليدهم . ووجدوا من الحياة العسكرية ما يشبع رغباتهم ولم يشركوا الجماعات الاخرى التي هي قوام الحياة لشعب الكوفة الا في قليل من الاعمال .

لذلك كانت الفوارق بين الطبقات كبيرة . وكان الاعتزاز بالقومية والتغني بمآثر الاجداد محور أعمالهم وتصرفاتهم . وكانت نظرتهم الى الاجانب على أنهم محكومون فعليهم ان يقوموا بواجباتهم نحو الحاكمين .

---

١ ـ ابن الفقيه البلدان ـ ليدن ـ ص ١٦٣

٢ ـ المصدر السابق

ان بقاء العصبيات العربية في بيئة الكوفة يفسر لنا كثيرا من الحوادث التاريخية والشغب المتواصل الذى عرفت به الكوفة ويفسر لنا الاضطرابات وعدم الاستقرار في الحياة الكوفية ويفسر لنا سخط عمر بن الخطاب - وهو المعروف بحرصه على وحدة العرب ومناهضته للعصبيات الجاهلية الاولى - وبرمه من تقلباتهم وعدم إذعانهم لاوامره وثوراتهم على من يوليه ويستعمله عليهم حتى كان يقول «من عذيرى من اهل الكوفة ان استعملت عليهم القوى فجروه وان وليت عليهم الضعيف حقروه» (١)

ويفسر لنا نظرتهم الى الموالى بعين الاحتقار، وكانوا ان ضجوا على الحجاج لانه استقضى عليهم سعيد بن جبير - وهو كما نعرف من وجوه التابعين - وقالوا: «لا يصلح القضاء الا عربى»، فعزله الحجاج، واستقضى ابا بردة بن ابي موسى الاشعرى. (٢)

فاذا نظرنا الى البصرة من هذه الوجوه الخاصة وجدنا فيها استقراراً ووجدنا فيها ما يشبه عدم الفوارق بين الطبقات ووجدنا فيها مايشبه الاندماج بين العناصر المختلفة عربية وغير عربية. ووجدنا من الطبقات المختلفة مشاركة في الاعمال واشتغالا بالأعمال التجارية عن مثل هذه الخصومات التي تغذيها العصبيات. مع ان فيها من قبائل العرب اقواماً لايقلون عن اخوتهم في الكوفة وجاهة ومكانة: فيها تميم وعلى رأسها الاحنف بن قيس وفيها الازد وعلى رأسها صبرة بن شيمان وفيها غيرها من بطون القبائل الاخرى.

ولذلك نجد اكثر الاجانب يتجهون الى البصرة لانهم كانوا يجدون فيها حياة مستقرة آمنة. فكثرة الاجانب في البصرة واشتراك البصريين في الاعمال

---

١ - البلاذرى فتوح البلدان ص٢٨٨ طبعة القاهرة

٢ - ابن العماد شذرات الذهب ج ١ ص ١٠٨

التجارية التي هيأها لهم مركز البصرة ووقوعها في مفترق الطرق التجارية تتلاقى عندها من الشمال والجنوب والشرق والغرب . . . كل ذلك جعل من سكان البصرة سواء أكانوا عرباً ام موالي شعباً شبه موحد فاذا انتقل الزائر بين مساجدها ومعاهد العلم فيها وجد الماصين والواعظين والفقهاء والمحدثين واكثرهم من الموالى قد جلس الى حلقاتهم المستمعون الى القصص الديني واحاديث الرسول ، واحكام الدين وتفسير ايات القرآن الكريم وفيهم العربي والفارسي والهندى وغيرهم .

واذا استمعت الى مفاخرهم وجدتهم يفخرون بمثل انس بن مالك والحسن البصري ومحمد بن سيرين وغيرهم وجلهم من الموالى . وكان قائلهم يقول : (من نزل البصرة فلم يقرلهم بثلاث فليست له بدار : بفضل عثمان وفضل الحسن البصري ورطب الازاذ) (١)

* * *

٢ - كتاب الله والمصحف

انتشر المسلمون في تلك البيئات المتباعدة وانتشر بينهم حفظة القرآن الذين تلقوه عن النبي وهم قريبو العهد منه سمعوه منه قراءته أو أقرهم على قراءاتهم واستقرت جماعة منهم في البصرة وجماعة منهم في الكوفة وجماعة منهم في الشام وهكذا . . .

وكان اهل الشام يقرءون بمصحف واهل الكوفة يقرءون بمصحف . وكانت هذه المصاحف تختلف اختلافاً اجازه النبي (ص) للمسلمين تيسيراً وتسهيلا ولم يكن المسلمون يومئذ ينكرون هذه الفروق بين القراءات بعدما سمعوا النبي ص

---

(١) أبن الفقيه : البلدان ص ٦٦ (ليدن) . . الأزاذ نوع من التمر عرفته البصرة القديمة وليس هو الزنجبيل الأبيض كما زعم ماسنيون في خطط الكوفة ص٣٦) فقد جاء في القاموس (مادة أزاذ) : « الأزاذ : نوع من التمر » ، وهذا قد كلمة (رطب) اليه في نص ابن الفقيه ، وهو ما جاء في القاموس ، لأن الرطب نضيج البسر (القاموس ، مادة الرطب) .

يقول : (انزل القرآن على سبعة احرف فاقرءوا ما تيسر منه)

ولكن الحالة بعد وفاة النبي اخذت تتغير واخذ الناس يتمسكون بأحرف قراءاتهم تمسكا شديداً وكان كل فريق يعتقد ان قراءته هي القراءة التي انزلت . ومن هنا أخذ أهل الأمصار يختلفون ، ويتجادلون ، حتى خاف أولو الأمر نتيجة هذا الاختلاف ، وخافوا على مصير الأمة ان تتفرق شيعا ، وعلى القرآن أن يناله تصحيف أو تحريف .

وهبت الدولة تريد أن تعمل شيئاً من أجل توحيد الصفوف ، وصيانة كتاب الله ، وقد خطت خطوتها الأولى فى سبيل ذلك ، وهي التي توجت بجمع القرآن في عهد أبي بكر ، باشارة من عمر بن الخطاب ، ثم خطت خطوتها الثانية بتوحيد نصه في عهد عثمان بن عفان ، وقد قالوا إن الذي دعا عثمان إلى أن يعمل على تحقيق هذه الخطوة هو : أن حذيفة بن اليمان كان في غزو أذربيجان مع أهل الشام وأهل العراق ، وكان الشاميون يقرءون بمصحف أبي بن كعب ، واهل الكوفة من العراقيين يقرءون بمصحف عبدالله بن مسعود ، وأهل البصرة منهم يقرءون بمصحف أبي موسى الاشعري ، وكانوا لذلك يتجادلون ، بل كان أهل الشام يكفرون أهل العراق ، وأهل العراق يكفرون أهل الشام ، فلما رجع حذيفة من الغزو أقبل على عثمان يطلب إليه أن يعمل شيئاً ، يجمع كلمة المسلمين ، وكان عثمان نفسه قد لمس هذا الخطر بنفسه ، فقد كان قراء المدينة يختلفون فيما بينهم ، وهم منه ومن الصحابه على كثب ، فعمل على توحيد نصوص القرآن ، واذاعتها في الناس ، واختار لذلك جماعة من الصحابة من حفظة القرآن ، وتم على أيديهم ما أراد ، ونسخ القرآن بلغة قريش . لانه إنما نزل بلسانهم . وبعث عثمان بنسخ منه إلى الامصار وأمر أن تحرق المصاحف الاخرى .

وما استقر الناس في الامصار حتى أقبل المسلمون على المساجد العامة . يتخذون منها مدارس للقرآن ونشأ فيها للقرآن معلمون . قضوا في اقراء القرآن

أعواماً طوالا وأصبحت المساجد تعج بالقراء والمقرئين . وكان يدفعهم إلى ذلك حرصهم على القرآن . وإيمانهم به ، لأنه قانونهم ، وعنوان مجدهم ، ومجلس حضارتهم ، وقد رووا أحاديث تحث الناس على القراءة والاقراء ، أمثال :

« خيركم من قرأ القرآن وأقرأه » .

و « أفضل العبادة قراءة القرآن » .

و « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » . (١)

وكان المسلمون يعتزون به حقاً . ويرون فيه منقذا من الضلالة الاولى ، ومحققاً لأهدافهم التى يهدفون إليها ، فهو الذي انتشل جماعاتهم من الجاهلية ، وأخذ بأيديهم إلى حيث يشاركون فى بناء الحضارة العالمية ، يحملونه معهم ، فيحملون به النور والهداية لهم وللشعوب الداخلة في الاسلام .

يقول فليب حتى : « ليس القرآن قلب الدين ، والدليل إلى مملكة السماء حسب ، ولكنه مختصر علوم ، ومستند سياسة ، يتضمن دستور القوانين لانشاء مملكة على الأرض أيضاً » . (٢)

والحق أننا لا نعرف كتاباً أحيط بالعناية والرعاية ، فحفظ على تراكيبه ، وكيفية ترتيله بلهجاته ، مع إتقان وضبط لا نظير لهما فى التلقى والتلقين ، ودقة بالغة في الأخذ والأداء ، وقاسى دارسوه ما قاسوه ، بتعداد سوره وآياته ، وكلماته وحروفه . . مثل القرآن الكريم .

* * *

وقد اشتهر باقراء القرآن من الصحابة : عثمان بن عفان وعلي بن ابى طالب ، وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وعبدالله بن مسعود . وأبو الدرداء الانصاري الخزرجى وأبو موسى الأشعري .

---

(١) ابن الجزري : النشر في القراءات العشر ، جـ ١ ص ٣ ، ٤ .

(٢) *Ph. Hitti. The Arabs " A Short History " P. 33*

وأخذ القراءة عن هؤلاء جماعة كبيرة من الصحابة والتابعين في الامصار الاسلامية ، في مكة والمدينة والشام والبصرة والكوفة

أما من كان منهم في الكوفة فهم : علقمة بن قيس النخعي . والاسود بن يزيد النخعي . ومسروق بن الأجدع الهمداني وعمرو بن شرحبيل . والحارث بن قيس . والربيع بن خثيم وعمرو بن ميمون . وأبو عبدالرحمن السلمي ، وزر ابن حبيش ، وعبيد بن نضيلة ، وسعيد بن جبير ، وابراهيم النخعي ، وعامر بن شراحيل الشعبي .

وتخصص بالقراءة جماعة بلغوا في العناية بالقراءات . وكانوا مرجعاً يرجع الناس إليهم ، ويقتدون بهم ، وتشد الرحال للأخذ عنهم .

وكان بالكوفة من هؤلاء : أبو عبدالرحمن السلمي وعاصم بن أبي النجود وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلي بن حمزة الكسائي . (١)

* * *

٣ — مدارس القرآن في الكوفة :

لقد مرت الاشارة الى مدى اعتزاز المسلمين بكتاب الله الكريم ، ومبلغ ما بذلوه من عناية ورعاية في سبيل حفظه وصيانته ، ورأينا أن فكرة جمع القرآن في الصحف نبتت ، ونمت في عهد أبي بكر ، وتم جمعه في عهده باشارة من عمر بن الخطاب ، ثم تلا ذلك توحيد نصوصه في المصاحف ، بعد أن رأى أولو الأمر ما كان بين المسلمين من أجله من خلاف وجدال ، وخافوا على المسلمين أن يتفرقوا شيعا وأحزابا ، وعلى كتاب الله أن يناله تصحيف وتحريف ، وكان ذلك في عهد عثمان بن عفان .

---

(١) راجع الفصل الذي عقده السيوطي في كتابه « الاتقان » عن حفاظ القرآن ورواته ، من ١٢١ الى ١٢٧ من الجزء الأول « مطبعة حجازي بالقاهرة » .

ولما لم تكن هاتان الخطوتان كافيتين لصيانة القرآن وحفظه ، عمل زياد بن أبيه على إعرابه ، وندب لذلك أبا الأسود الدؤلي ، فقام بعمله المعروف ، ثم جاء الحجاج بن يوسف الثقفي ، فعمل على اعجامه ، وندب لذلك نصر بن عاصم ، أحد تلاميذ أبي الأسود ، فقام بنقط المصحف نقطاً يهدف الى غير ما كان يهدف اليه نقط ابي الأسود ، فنقط أبي الاسود كان يهدف الى تمييز حركات الحروف ، من ضم وفتح وكسر ، وكان بالمداد الأحمر ، ونقط نصر بن عاصم كان يهدف الى تمييز الحروف المتشابهة في الصورة بعضها من بعض ، كتمييز الباء من التاء ومن الثاء ، وكتمييز الجيم من الحاء ومن الخاء ، وهكذا . .

وختمت هذه الأعمال بوضع علامات خاصة للفتحة والضمة والكسرة ، لتمييز علامات الاعراب من علامات الاعجام . . والذي قام بهذا العمل الجديد هو الخليل ابن أحمد الفراهيدي . . وقد جعل علامة الفتحة ألفا صغيرة توضع فوق الحرف ، وعلامة الضمة واواً صغيرة ، توضع فوق الحرف ، وعلامة الكسرة ياء صغيرة توضع تحت الحرف ، لأنه كان يرى « ان الفتحة من الألف ، والكسرة من الياء ، والضمة من الواو » (١) ، فأغنى المسلمين على أن يلتجئوا إلى التفريق بين نقط الاعراب ونقط الاعجام ، باستعمال لونين من المداد ، كما أغناهم عن النزاع في اباحة استعمال المداد الأحمر وكراهته أو حرمته ، مما هو معروف ، مدون في كتب القراءات .

فالعمل على حفظ القرآن كان من عمل الدولة ، ولم يقم بتلك الأعمال رجال الدولة أنفسهم ، وانما ندبوا لها العلماء ، لأنها أعمالهم ، وفي نطاق تخصصهم ، فهم الذين حفظوا القرآن عن النبي (ص) ، وهم الذين جمعوه وكتبوه ، وهم الذين وحدوا نصه ، واعربوه ، وأعجموه .

---

(١) الكتاب جـ٢ ص ٣١٥ .

ولكن العلماء لم يقفوا عندما أرادت الدولة من جمع القرآن ، وتوحيد نصه ، وضبطه ، بل مضوا في دراسته ، وفقهه ، وفقه منهجه وراحت كل طائفة منهم تتجه اتجاهاً خاصاً في دراسته فنشأت :

طائفة اتجه نشاطها إلى تصحيح متن القرآن عن طريق الرواية وهي طائفة القراء .

وطائفة راحت تدرس القرآن لتفهم الأحكام التي تضمنها مما هو لازم لبناء المجتمع ، وهي طائفة الفقهاء .

وطائفة اتجهت اتجاهاً لغوياً فأخذت تعنى باعراب نصوص القرآن مستعينة برواية اللغة ، ثم توسعت في ذلك فتناولت بالدراسة علل التأليف أو علل الاعراب وهي طائفة النحاة .

فالنحو إذن هو وليد التفكير في قراءة القرآن لأن العلماء لم يفكروا ابتداء في دراسة علم يبحث عن علل التأليف ولكنهم توصلوا إلى ذلك بعد أن نضجت الفكرة في أثناء قيامهم بعملهم القرآني .

يؤيد هذا أن أوائل الدراسين من النحاة كانوا من القراء او ممن عنوا بالدراسات القرآنية . فمن البصريين : عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي وعيسى بن عمر الثقفي وأبو عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد الفراهيدي . ومن الكوفيين : علي بن حمزة الكسائي ويحي بن زياد الفراء .

وساعد على إنمائه حاجة الشعوب الداخلة في حكم الدولة العربية إلى معرفة لغة الدولة وإلى حياة السلام في ظلها وقد وجدت هذه الشعوب في هذه الدراسة الجديدة التي بدأت بعمل أبي الأسود ونضجت في عهد الخليل بن أحمد وعلى يده ويد من عاصره .. ما يضمن لها معرفة هذه اللغة ويحقق لها الرغبة في حياة مستقرة آمنة .

* * *

واذا قلنا : مدارس القرآن في الكوفة فلا نعني أن الكوفة قد انفردت بالاهتمام بالاعمال القرآنية فهناك مصر آخر في بلاد السواد وهو البصرة قام بنصيبه من هذه الاعمال وقد اشترك المصران في اشياء وافترقا في اشياء .

اشتركا جميعاً في القراءة والاقراء ووجد فيهما شيوخ للاقراء .. واشتركا في دراسة الاحكام رواية واستنباطاً ووجد فيهما محدثون وفقهاء ... واشتركا في رواية اللغة والشعر ووجد فيهما نقدة شعر ومصححو لغة .. واشتركا في البحث في علل التأليف ووجد فيهما نحاة يعنون باستخراج قواعد اللغة واصولها .

ويبدو ان هذين المصرين - على ما عرف عنهما من تنافس - كانا على اتصال وتجاوب دائمين فلا يكاد يحدث شيء في الكوفة الا وجد صداه في البصرة ، ولا يشيع شيء في البصرة إلا شاع في اوساط الكوفة . من البصريين من كان يقصد الى الكوفة واكثر هؤلاء من الشعراء وبعض النحويين كمعاذ بن مسلم الهراء وابي جعفر الرواسي .. ومن الكوفيين من كان يشد الرحال الى البصرة يحضر حلقات الدرس فيها كما فعل الكسائي والفراء ومن كان يأوي اليها هرباً من السلطان في الكوفة او في واسط كسفيان الثوري وغيره

وافترقا اشكالا لا موضوعاً ، ويتمثل هذا الافتراق باهتمام كل من المصريين بجانب من هذه الدراسات اهتماما يفوق اهتمام المصر الآخر . فبينما كانت عناية الكوفيين تنصب على دراسة القراءات والفقه والحديث إذ كانت عناية البصريين تنصب على الدراسة اللغوية والنحوية ، وما تستتبع من أقيسة وعلل ، ومباحث علم الكلام .

ففي الكوفة ظهر ثلاثة من أعلام القراءة السبعة ، وفيها ظهرت مدرسة القياس في الفقه ، وفي البصرة بكرت الدراسة اللغوية ، وظهرت مدرسة علم الكلام .

ويعزى هذا - فيما نظن - الى ما بين المصرين من اختلاف يتصل بطبيعة

للموقع ، وطبيعة السكان . فموقع الكوفة - من الناحية الجغرافية أقل أهمية من موقع البصرة لأن البصرة تقع في ملتقى الخطوط التجارية المتحدرة اليها من الشمال ، والجنوب والشرق والغرب ولأن البصرة - من أجل ذلك - موطن عناصر متباينة وملتقى مذاهب وديانات مختلفة .

ولكن الكوفة مركز السلطة الاسلامية في البلاد الشرقية المفتوحة وفيها يغلب الطابع العربي وفيها نزلت جمهرة الصحابة الذين هاجروا الى الامصار الاسلامية من مكة والمدينة وهم حفظة القرآن وحملة الحديث .

ومهما يكن أمر الاختلاف بين هذين المصرين فانها ما لبثا أن تلاقيا وتضافرت جهودهما واستقلتها بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية الجديدة واعتمدت عليها في كثير من الشئون .

* * *

أ - مدرسة القراءة والقراء :

تقوم هذه المدرسة على شيوخ حفظوا القرآن ورووا قراءاته عمن عاصروه من الصحابة ولازموه وأخذوا يلقنون تلاميذهم والمقبلين على معرفة القراءات ما رووه هم عن الصحابة الذين رووا قراءة النبي (ص) أو أقرهم النبي على قراءاتهم . وتخصصوا بهذا الجانب من العمل القرآني .

وفي الكوفة من هؤلاء الشيوخ جمع كبير وفيها وحدها ثلاثة من سبعة هم اعلام القراءة في الامصار الاسلامية وهم عاصم بن ابي النجود وحمزة بن حبيب الزيات وعلي بن حمزة الكسائي . ومرجع هؤلاء جميعاً : أبو عبد الرحمن السلمي وزر ابن حبيش .

أبو عبد الرحمن السلمي :

كان أبو عبد الرحمن السلمي (توفي سنة ٧٤هـ) اول من أقرأ القرآن في مسجد

الكوفة وقد قعد للاقراء فيه أربعين سنة (١) وإليه تنتهي رواية أكثر القراء في الكوفة ، وكان قد أخذ القراءة عن علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود . وابي بن كعب. ورواها عنه الحسن والحسين ابنا علي بن ابي طالب ، وعاصم بن ابي النجود ، أحد الأعلام السبعة في القراءة ، وعطاء بن السائب ومحمد ابن أبي أيوب ، وأبو عون محمد بن عبيد الله الثقفي ، وعامر بن شراحيل الشعبي ، واسماعيل بن ابي خالد . وإليه انتهت القراءة تجويداً وضبطاً . (٢)

* * *

زر بن حبيش :

ومن شيوخ الاقراء في الكوفة : زر بن حبيش الأسدي الكوفي (توفى سنة ٨٢ هـ)

كان عاصم بن أبي النجود يقول : مارأيت أقرأ من زر ، وكان عبد الله ابن مسعود ، على جلالة قدره يسأله عن اللغة .

أخذ القراءة عن عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود وأخذها عنه عاصم بن ابي النجود وسليمان الأعمش ويحيى بن وثاب وغيرهم . (٣)

* * *

عاصم بن ابي النجود :

ومن شيوخ الاقراء فيها عاصم بن ابي النجود (توفى سنة ١٢٧ هـ) الذي انتهت اليه رياسة الاقراء بالكوفة بعد أبي عبد الرحمن السلمي وكان يجمع بين الفصاحة والاتقان والتجويد .

---

(١) ابن الجزرى : النشر جـ ١ ص ٤٢٣ ،
(٢) ابن الجزري : غاية النهاية جـ ١ ص ٤١٣ .
(٣) ابن الجزرى : غاية النهاية جـ ١ ص ٢٩٤ .

اخذ القراءة عن ابي عبد الرحمن السلمي وزرّ بن حبيش ويبدو مما ذكره ابن الجزري ان أبا عبد الرحمن كان مرجعه الاول فقد ذكر في غاية النهاية : ان أبا بكر بن عياش قال : قال لي عاصم : « ما أقرأني أحد حرفاً الا أبو عبد الرحمن السلمي وكنت أرجع من عنده فأعرض على زرّ » .

وأخذها عنه أبو بكر بن عياش وحفص بن سليمان الأسدي الكوفي وأبان بن تغلب وأبان بن يزيد العطار .

وروى عنه حروفاً من القرآن أعلام القراءة واللغة ، كأبي عمرو بن العلاء والخليل بن احمد الفراهيدي ، وحمزة بن حبيب الزيات . (١)

* * *

حمزة بن حبيب الزيات :

ومن شيوخ الاقراء فيها : حمزة بن حبيب الزيات ، التميمي ، ضليبة اوولاء . (٨ - ١٥٦ هـ) .

كان إمام الناس في القراءة بعد عاصم بن ابي النجود وسليمان الاعمش وكان مقرئاً حافظاً للحديث بصيراً بالفرائض حتى قال له ابو حنيفة يوماً : « شيئان غلبتنا عليهما اسنا تنازعك فيهما : القرآن والفرائض » . (٢) وكان حمزة يقول : « ما قرأت حرفاً من كتاب الله إلا بأثر » . (٣)

اخذ القراءة عن سليمان الأعمش وحمران بن أعين . وابي اسحاق السبيعي ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وجعفر بن محمد الصادق وغيرهم . (٤)

وتنتهي قراءته - كما تنتهي قراءة غيره من الشيوخ - الى ابي عبد الرحمن

---

(١) ابن الجزري : غاية النهاية جـ ١ ص ٣٤٧ .

(٢) غاية النهاية جـ ١ ص ٢٦٣ . والنشر جـ ١ ص ١٦٦ .

(٣) النشر جـ ١ ص ١٦٦ .

(٤) غاية النهاية جـ ١ ص ٢٦٠ والتيسير للداني ص ٩ .

السلمي وزر بن حبيش ، عن علي بن ابي طالب ، وعبدالله بن مسعود .

وأخذ القراءة عنه علي بن حمزة الكسائي ، ويحى بن زياد الفراء ، ويحيى ابن المبارك اليزيدي ، وخلف بن هشام البزاز ، وخلاد بن خالد .

* * *

علي بن حمزة الكسائي :

وخاتمة هؤلاء الشيوخ في الكوفة : علي بن حمزة الكسائي ، الاسدي ولاء (١١٩ - ١٨٩ هـ) .

انتهت اليه رياسة الاقراء في الكوفة ، بعد حمزة بن حبيب الزيات ، كان امام الناس في القراءة في زمانه ، وأعلمهم بها ، وكانت القراءة علمه وصناعته وكان ضابطاً مجوداً ، حتى قيل : « انه لم يجالس احداً كان اضبط ، ولا أقوم بها منه » . (١)

يروى ابن الجزري عن ابن الانباري : ان الكسائي كان اوحد الناس في القرآن « فكانوا يكثرون عليه حتى لا يضبط الاخذ عليهم فيجمعهم في مجلس ، ويجلس على كرسي ويتلو القرآن من اوله الى آخره . وهم يسمعون ويضبطون عنه » . (٢)

وقال خلف بن هشام : « كنت احضر قراءته والناس ينقطون مصاحفهم على قراءته » (٣) وكان ابن معن يقول : « ما رأيت بعيني هاتين اصدق لهجة من الكسائي » .

وقد عرف الكسائي أنه كان يتخير القراءات فكان يأخذ من قراءة حمزة

---

(١) غاية النهاية جـ١ ص ٥٣٨ .

(٢) النشر في القراءات العشر جـ ١ ص ١٧٣ .

(٣) العسقلاني : تهذيب التهذيب جـ٧ ص ٣١٤

بعضها ويترك بعضها الآخر ، ويختار قراءة متوسطة ، غير خارجة عن آثار من تقدم من الأئمة (١) «غير أن مادة قراءته واعتماده في اختياره عن حمزة»(٢)

وهو فوق أنه امام اهل الكوفة في القراءة - امامهم في العربية . وان كانت القراءة علمه وصناعته كما قال ابن الجزري لأنه مارسها وهو صغير ولم يتعلم النحو الا وهو كبير كما كان الفراء يقول . (٣)

وقد اخذ النحو عن الخليل بن احمد ويونس بن حبيب وعن قراءته كتاب سيبويه على الاخفش ، واخذ اللغة عن اعراب البوادي وبولغ فيما اخذ عنهم فقيل انه كان قد انفد خمس عشرة قنينة حبرا في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ.(٤)

اخذ القراءة عن حمزة بن حبيب ومحمد بن أبي ليلى وعيسى بن عمر الهمداني وروى الحروف عن ابي بكر بن عياش راوية عاصم بن ابي النجود .

واخذ القراءة عنه كثيرون منهم : ابو عبيد القاسم بن سلام وحفص بن عمر الدوري النحوي صاحب اليزيدي والليث بن خالد البغدادي ويحي بن زياد الفراء ويعقوب الحضرمي .

* * *

من هؤلاء الشيوخ وغيرهم تكون مدرسة الاقراء في الكوفة وهذه المدرسة - وان ظلت قائمة خلال العصور - تعد بمثابة الاتجاه الأول الذي اتجهت اليه دراسة القرآن وهي مدرسة قائمة على الرواية والتلقين لا تكاد تتعداها .

ب - مدرسة الفقه والفقهاء :

وهناك في الكوفة طبقة من القراء لم يقصروا عنايتهم على تصحيح نصوص

---

(١) ابن الجزري : غاية النهاية ج ١ ص ٥٣٨ .
(٢) الداني : التيسير ص ١٠
(٣) معجم الأدباء ج ١٣ ص ١٦٨ .
(٤) المصدر السابق ونزهة الالباء ص ٨٣ ، ٨٤

القرآن ، وتلقينها ولكنهم عنوا الى جانب ذلك بالجانب العملي منه ، عنوا بآيات الأحكام فيه واستخراج الأحكام منها والافتاء بها ، وهذه الطائفة هي طائفة الفقهاء .

ويبدوا أن قراءة القرآن واقراءه والعمل بنصوص الكتاب وسنة النبي ، أو طائفة القراء وطائفة الفقهاء قد نشأتا في العالم الاسلامي معا أو هي هي لا تفريق بين مقري ، وفقيه .

والناس إنما كانوا يرجعون الى القراء « فلم يكن يفتي من الصحابة إلا حملة القرآن الذين قرءوه وكتبوه ، وفهموا وجوه دلالته ، وعرفوا ناسخه ومنسوخه ، وكانوا يسمون القراء لذلك وتميزاً لهم عن سائر الصحابة بهذا الوصف الغريب في أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب » . (١)

وأصول الفقه التي استند إليها الفقهاء في استخراج الاحكام ، من عبادات ومعاملات ، هي : القرآن الكريم ، والسنة النبوية من قول أو فعل ، والرأى بمعناه العام ، الذي نشأ فى التشريع الاسلامي مع القرآن والسنة ، فى عهد النبي وعهد خلفائه ، ولكن الرأي — في بادىء الأمر — لم يكن واسع النطاق ولم يحتاجوا اليه الا عند الضرورة وقليلا ما كانت الضرورة تستدعى اعمال الرأي ، لان ما فى نصوص القرآن وما في السنة كفيل بسد حاجات الحياة العربية الاسلامية الساذجة في الحجاز والبوادي العربية الأخرى .

ثم نشأت بعد الفتوحات الاسلامية مطالب جديدة أو حاجات اقتضتها حياة المسلمين واحوال معايشهم فى الامصار المفتوحة ، ولم يكن للمسلمين بها عهد فقد عاش المسلمون في هذه الامصار مع شعوب كان لها حضارات ومدنيات وكان لها عادات ونظم لم تتسرب الى العرب في الجزيرة ليكون لها فى الكتاب والسنة حكم أو افتاء فيها ، فاضطر المسلمون الى الاجتهاد فيها واستصدار الرأي بما لا يخالف

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٧ ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ١٩٠

نصا او سنة ، ولم يتحرج المسلمون من استعمال الرأي في هذه الاحكام لأن الرأي كان مستعملا - وان كان في نطاق ضيق - في حياة النبي وعهد خلفائه .(١)

وكان صغار الصحابة والتابعون يرجعون الى مجموعة من الاراء استعملت في وقائع خاصة منذ عهد النبي (ص) وفي عصر خلفائه وكان مجموعها يمثل اصلا من أصول الفقه ولكنه ضيق محدود .

ومع ذلك فان حملة العلم من الصحابة والتابعين كانوا طائفتين : طائفة تحجم عن العمل بالرأي ، وتشدد في المطالبة باتباع الآثار ، والوقوف عند ظواهر النصوص ، دون بحث في عللها . وطائفة لا ترى بأساً فيه ، ولا تتحرج من العمل به ، اذا مست الحاجة اليه ، ولا تحجم عن البحث عن علل الاحكام ، وربط المسائل بعضها ببعض

وقد أشرنا الى أن العمل بالرأي كان قد اقتضته ظروف طارئة ، وحاجات جديدة ، لم يكن للمسلمين الأولين في حياتهم البدوية الأولى عهد بها ، ولزمت الحاجة اليه لزوماً شديداً يوم أن احتكوا بأمم عريقة بالحضارة والمدنية ، عند نزوحهم الى الأمصار الاسلامية في البلاد المفتوحة .

حينئذ انقسم الفقه فيهم الى طريقتين : طريقة أهل الحديث ، وهم أكثر أهل الحجاز ، وطريقة أهل الرأي والقياس ، وهم أكثر أهل العراق .(٢)

كان أهل المدينة لا يميلون الى اتباع الرأي ، لكثرة من فيهم من حملة العلم ، والقراء من الصحابة ، من جهة ، ولبقاء حياة الناس على ما كانت عليه تقريباً ، من سذاجة وبداوة ، من جهة أخرى ، فكانت الاحاديث الشائعة بينهم تفي بالحاجة ، ولم تضطرهم الظروف الى اعمال الرأي إلا في نطاق ضيق محدود .

---

(١) تمهيد ص ١٩٠

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٧ وضحى الاسلام ج ٢ ص ١٥١ وتمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٢٠٥ .

وكان أهل العراق لا يتحرجون من إعمال الرأي ، لأنهم واجهوا في حياتهم الجديدة الى جانب الداخلين في الاسلام من الأجانب ، كثيراً من الشئون ، التي تتصل بحياة الأسر و بالأحداث الاقتصادية والجنائية ولم يكن للمسلمين بد من الحكم فيها فأفتوا بها بما كان يتفق مع العرف ، أو بما كان يهديهم اليه الرأي الاجتهادي . (٢)

على ان العراقيين لم يكونوا يجمعون على العمل به، فان علماءهم كانوا يختلفون فيما بينهم فمن مبالغ في التشدد لا يجنح الى الرأي الا عند تقطع الأسباب وإعواز النصوص ، ومن متساهل لا يرى في اعمال الرأي والاجتهاد خروجاً عن التشريع لانهم كانوا يرون ان الشريعة معقولة المعنى وان لها أصولا ثابتة ، يمكن الرجوع إليها عند الحاجة .

وكما كان أكثر أهل الحجاز يتحرج من الرأي و يرى العمل به محنة كان أكثر أهل العراق لا يحجم عنه بل كان يتحرج من كثير من الأحاديث و يرى الاخذ بها محنة ، وحجته في هذا بعد ما بين الناس و بين مصدر التشريع ، وعدم الوثوق من صحة كثير مما يروى من أحاديث .

لذلك نجد أصحاب مدرسة القياس لا يأخذون من الاحاديث الا ما رواه جماعة عن جماعة ، او إلا ما كان متواتراً . وقد كان أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة يقول : «عليك من الحديث بما تعرف العامة واياك والشاذ منه» أي أنهم كانوا لا يقبلون من الاحاديث الا ما أقره العلماء في مختلف الامصار الاسلامية لان شيوعها في هذه الأمصار المختلفة يدل اشارة على صحتها وقطعيتها اذ لو لم تكن كذلك لظهر الاختلاف ولندت من الصحابة أو بعضهم معارضة هنا او هناك .

ومهما يكن من أمر، فان القضاء بين الناس او الافتاء بما ورد في الكتاب

---

(٢) تاريخ الفلسفة في الاسلام (دي بور) ص ٤١ .

والسنة ،وأعمال الرأي فيما لم يرد فيه نص فيها يبتدىء من عهد النبي (ص) وكان يفتي الناس في عهده من الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وعبدالله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة ابن اليمان وزيد بن ثابت وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعري وسلمان الفارسي (١)

وحين هاجر كثير من هؤلاء وغيرهم الى الامصار الاسلامية كانوا أيضاً المراجع الأولى للناس في استصدار الفتاوى ، لأنهم عرفوا بسعة الاطلاع ، وتوثيق النبي اياهم ، واقرارهم على ما أفتوا به في زمانه .

وقد هاجر الى الكوفة من هؤلاء : عمار بن ياسر وعبدالله بن مسعود ، هاجرا اليها منذ تمصيرها في خلافة عمر ،وقد رأينا الرسالة التي وجه بها عمر الى اهل الكوفة بشأنها وكيف أنه آثرهم بعبدالله بن مسعود على نفسه

أرسل عمر بن الخطاب الى الكوفة عمار بن ياسر ليلي أمور المسلمين فيها وأرسل عبدالله بن مسعود ليكون معلماً ووزيراً وليقضي بين الناس هناك .

وعمر في هذا أول من وضع الأسس لتنظيم العمل الحكومي في الدولة الاسلامية وهو الذي كان يرسل الى جانب الولاة وعمال الانصار عما لا على القضاء وغير القضاء من الشئون التي تحتاج اليها الدولة .

ثم هاجر الى الكوفة علي بن أبي طالب ومكث فيها قرابة خمس سنوات وهي مدة خلافته، وترك للناس مجموعة من الفتاوى أفتى بها في وقائع خاصة كان يقيس فيها واقعة على واقعة وحكماً على حكم ومن ذلك قوله في حد شارب الخمر : «انه اذا شرب الخمر سكر، واذا سكر هذى واذا هذى افترى فحدوه حد المفترين» فقد قاس حد الشارب على حد المفترى القاذف . (٢)

(١) خطط المقريزي ص ١٤٢ .

(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ١٦٢ .

وكان أغلب قضاياه في الكوفة ولم يحملها عنه الا أهل الكوفة وأصحابه وأهل بيته كما انه لم يحمل عن عبدالله بن مسعود الا أهل الكوفة .

ومن علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود تتألف الطبقة الاولى من الفقهاء في الكوفة وحمل علمها عنها أصحابها وتلاميذهما .

وانبرى للقضاء والفتيا بعد هذه الطبقة طبقة أخرى من العلماء وأهل الحديث قوامها تابعيون عرفوا بالدين ووفرة العلم وسعة الاطلاع وكثرة الحفظ . وفي طليعة هؤلاء تابعيون معروفون هم : عامر بن شراحيل الشعبي وسعيد بن جبير وابراهيم النخعي وكان هؤلاء الثلاثة متعاصرين .

* * *

أما عامر بن شراحيل فهو تابعي جليل القدر وهو فقيه عالم محدث وله جانب ملحوظ في الأدب والرواية حتى إن الجاحظ حين عرض لعبد الله بن شبرمة قال : « كان فقيهاً عالماً قاضياً وكان راوية شاعراً وكان خطيباً ناسكاً وكان حاضر الجواب مفوهاً وكان لاجتماع هذه الخصال فيه يشبه بعامر الشعبي » (١)

وبلغ عامر من علو المنزلة ان كان أهل الكوفة يعتزون به ويفاخرون به أهل البصرة ، فقد اجتمع ابن عياش الكوفي ، وأبو بكر الهذلي البصري ، في حضرة أبي العباس السفاح ، وأخذ كل منهما يفتخر بمصره ، ويعرض على الحاضرين مزاياه ، وجوانب الفخر به ، فكان مما قال ابن عياش لمناظره :

« واين أنت عمن لم تر عينك مثله في زمانه من أصحاب النبي (ص) ، ولا أحفظ لما سمع ، ولا أفقه في الدين ، ولا أصدق في الحديث ، ولا أعرف بمغازي النبي ، وأيام العرب ، وحدود الاسلام والفرائض ، والغريب ، والشعر ، ولا أوصف لكل أمر من عامر بن شراحيل الشعبي » ، فأمن الحاضرون على

---

(١) الجاحظ البيان والتبيين جـ١ ص ٢٣ .

كلامه ، وقالوا : لقد كان كذلك . (١)

وكان الشعبي يجلس في مجلسه ، فيناظر أصحابه ، ويناظرونه في الفقه (٢) وكان من العلماء في القراءة ، أخذها عن أبي عبد الرحمن السلمي ، ورواها عنه محمد بن أبي ليلى ، وكان يقول : « القراءة سنة فاقرءوا كما قرأ أولوكم » (٣) .

* * *

وأما سعيد بن جبير ففضله معروف أيضاً ، وهو مقرئ ، مفسر ، فقيه محدث أخذ عن عبدالله بن عباس وكان ممن ولاهم الحجاج قضاء الكوفة ثم عزله وقتله حين خرج عليه مع ابن الاشعث . وكان أعلم التابعين في الطلاق (٤) وكان عبدالله بن عباس يعتمد عليه ويأذن له بأن يحدث الناس (٥)

* * *

واما إبراهيم النخعي فهو ابن يزيد النخعي الكوفي فقيه الكوفة وقاضيها كان قد أخذ الفقه عن خاله علقمة بن قيس النخعي ، وكان علقمة هذا من متقدمي فقهاء التابعين . ومن أصحاب عبدالله بن مسعود ، وكان إبراهيم معاصراً للشعبي ، ولكنهما كانا يختلفان في الطريقة ، فالشعبي كان يميل الى طريقة أهل الحديث وكان يكره الرأي ، ويحجم عنه ، وكانت له مجالس يفند فيها الرأي والقياس . وابراهيم كان يميل الى طريقة أهل الرأي ، بل لعله يعد رأس مدرسة الرأي الاجتهادية في العراق بعد الطبقة الأولى من الفقهاء أصحاب الرأي ، كعلي بن أبي طالب ، وعبدالله بن مسعود وعلقمة بن قيس ، وغيرهم ، وقد غذت هذه المدرسة

---

(١) ابن الفقيه : البلدان ص ١٧١ (ليدن) .
(٢) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٣٣٣ .
(٣) ابن الجزري : غاية النهاية جـ ١ ص ٣٥٠ .
(٤) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ١٠٨
(٥) مرآة الجنان جـ ١ ص ١٩٦ .

مدرسة القياس ، التي نبتت نواتها ، ونمت في الكوفة فابراهيم شيخ حماد بن سلمة ، وحماد شيخ أبي حنيفة ، زعيم مدرسة القياس .

ومن شيوخ هذه المدرسة الاجتهادية محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، قاضي الكوفة في عهد الأمويين والعباسيين ، وكان يلي القضاء لأبي جعفر المنصور « وكان يفتي بالرأي قبل أبي حنيفة » . (١)

* * *

فالكوفة بهؤلاء ومن جاء بعدهم زعيمة أمصار العراق في الفقه ، ومصدر المذهب الرسمي للدولة الاسلامية في صدر الدولة العباسية .

* * *

جـ - النحو والنحاة :

وهناك في الكوفة طبقة أخرى من القراء ، عنيت بالجانب اللفظي وعنى اصحابها وشيوخها باعراب القرآن ، ورواية اللغة ، لتصحيح القراءات ، وحاولوا التوفيق بين القراءات التي كانوا يروونها ، وقواعد الاعراب التي تعلموها ، أو وضعوها .

وقد سبق أن أشرنا الى عاملين ، كان لهما اكبر الاثر في نهوض الدراسة اللغوية ، وهما :

(١) خوف المسلمين على الكتاب الكريم أن يصيبه تحريف ، أو يداخله ما يفسد نصوصه من تصحيف أو لحن ، وقد كانوا يؤمنون به إيمانا ، ويقدسونه تقديساً ، وليس غريباً أن يحظي منهم بمثل هذا الايمان ، وهذا التقديس لأنه كتاب دينهم ، وديوان تشريعاتهم ونظمهم ، ومصدر مدنيتهم وحضارتهم ، وقد عقدوا العزم على أن يقوموا في سبيل دفع الخطر عنه بأعمال مثمرة ، فجمعوه ووحدوا نصه ، واعربوه ، واعجموه ، وظهرت لهم أثناء قيامهم بهذه الاعمال

(١) فهرست ابن النديم ص ٢٨٦ .

آفاق جديدة للدراسة ساروا فيها ، وتعلقوا بأسبابها ، فاذا هذه الدراسة الجديدة كائن متميز ، نما بين الدارسين سريعاً .

وليس من اليسير تتبع الخطوات التي خطاها الدارسون فيها ، أو رصد مراحل نشأتها ونموها . ولكن العربية في أواخر قرنها الثاني شهدت نتائج هذه الاعمال مسجلة في كتاب ضخم . حوى خلاصة ما بذله الدارسون من جهود ، وما جنوه من ثمرات ، وهو الكتاب الذي دوى اسمه في تاريخ العربية ودوى معه اسم من نسب اليه ، وهو سيبويه .

وقد تناسى القدماء صاحب الفضل فيه ، فأرجعوا كل شيء فيه الى سيبويه ولو انصفوا لوفوا الخليل بن أحمد الفراهيدي حقه ، لأنه كتابه ، واكثر ما فيه آراؤه وأقواله ، وكان لسيبويه فيه فضل جمع هذه الآراء ، وتنسيقها وتبويبها وتسجيل آراء أخرى لشيوخه الآخرين ، يضاف الى ذلك آراؤه الخاصة التي بنى أكثرها على تأييد مذهب الخليل اما أصول كتابه ومسائله ففي نظر كثير من القدماء ، وفي نظرنا ، هي للخليل بن أحمد الذي ينسب اليه كثير من الاعمال الرائعة في مجال البحوث اللغوية والنحوية .

ومثل هذا العمل الضخم - أعني النحو - لا يمكن إرجاعه الى الخليل وحده أو الى سيبويه وحده ، لأنه ليس من عمل فرد أو أفراد ، وانما هو عمل للجماعات وثمرة جهود متضافرة لكثير من الدارسين ، الذين تعاقبوا على هذه الدراسة منذ مستهل النصف الثاني من القرن الأول ، أو منذ أن أقدم أبو الاسود على تحقيق عمله المعروف .

كان الخليل بن أحمد أحد أولئك العلماء الذين شاركوا في انماء هذه الدراسة ، وكان له فيها فضل تنظيمها ، وجمع ما تفرق من مسائلها ، وابتداع كثير من أصولها ، ورسم منهج لغوي لدراستها نماه من بعده الدارسون في البصرة فامتازوا به ، وانطبعت مناهجهم الدراسية بطابعه .

ثم جاء الكوفيون ، بعد أن درسوا عليه ، وأخذوا عنه ، فرسموا لأنفسهم منهجاً جديداً بعض الجدة ، يتفق مع منهج أهل البصرة في أشياء ، ويختلف عنه في أشياء ، أو كما يقول « أوليري » : يتفق معه في النظرية والمبدأ ويختلف عنه في التطبيق ، متأثرين في ذلك بمؤثرات كوفية سوف نعرض لها في فصول مقبلة .

(٢) وحاجة الشعوب الداخلة في الاسلام وفي الحكم العربي إلى تعلم لغة الدولة لتحيا في ظلها حياة آمنة وليس طبيعياً أن تصبح لغتهم عربية خالصة لأنهم لايزالون يخضعون لعاداتهم اللغوية الأولى التي تركت في أنفسهم وفي ألسنتهم آثاراً عميقة ليس من السهل التخلص منها وخاصة مايتصل منها بمخارج الحروف لذلك شهدت البيئات الاسلامية المختلفة أمثلة كثيرة للتحريف واللكنة لامن الأجانب وحدهم بل من العرب الذين نشئوا في هذه البيئات المختلطة ايضاً .

وقد حدثنا الجاحظ : أن عبيد الله بن زياد كانت في لسانه لكنة لأنه نشأ بين الاساورة ـ وهم جماعة من الفرس سكنت البصرة ـ مع أمه مرجانة وقد كان زياد أبوه زوجها من شيرويه الأسوارى . كان عبيد الله بن زياد يرتضخ لكنه فارسية لم يستطع معها إخراج الحاء والقاف من مخرجيهما الحقيقيين فكان يقلب الحاء هاء . قال يوما لهانىء بن قبيصة وظن به رأي الخوارج : (أهروري سائر اليوم ؟ يريد : أحروري .) وكان يقلب القاف كافا فكان إذا أراد أن يقول : قلت لك اقتله قال : كلت لك اكتله . (١)

وهذا وامثاله إنما ينشأ من تلاقي اللغات وتفاعلها وقد شعر الجاحظ قديماً بهذا فكان يقول : (اللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها) (٢) وهو مبدأ لغوى صحيح اقره المحدثون فقد قال

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٨٧ ـ ٨٨

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٣٤٦

(فندريس) : (إذا احتكت لفتان إحداهما بالأخرى أثرت كل منهما في صاحبتها)[١] وهو نفس ماقاله الجاحظ قديماً الا أن الجاحظ كان يعني التقاء اللغتين في لسان الشخص الواحد كما مثل لذلك بعبيد الله بن زياد الذي كان يجعل الحاء هاء والقاف كافا و بزياد الاعجم الذي كان يجعل السين شينا والطاء تاء فيقول :

« فتى زاده الشلتان في الخير رغبة »

يريد : السلطان وبصهيب بن سنان النمري ، صاحب رسول الله ، الذي كان يقول : « انك لهائن . يريد : انك لحائن » أي هالك [٢] ، وبغير هؤلاء ممن ذكرهم على أنهم كانوا يرتضخون لكنات أجنبية ، فارسية أو رومية أو نبطية ، ولذلك كان يعجب من أمر موسى بن سيار الأسواري ، احد قصاص البصرة ، ويقول : « كان من أعاجيب الدنيا . كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به ، فيقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه الى الفرس ، فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدري بأي اللسانين هو أبين » . [٣]

أما فندريس فيريد التقاءهما باختلاط شعبين ، وتأثر أحدهما بالآخر ، والنتيجة التي نريد الوصول اليها واحدة .

هؤلاء الاجانب الداخلون في ظل الحكم العربي كانوا أكثر حرصاً على تعلم العربية ودراستها ووضع قواعد يسهل عليهم الرجوع إليها ، اذا أعوزهم بيان أو غمض عليهم تعبير ، لذلك كان اقبالهم على هـــذه الدراسة اللغوية الجديدة عظيما ، وكان اهتمامهم بأمرها بالغاً ، بحيث كان عاملا على نموها السريع ، فكانوا

---

(١) فندريس : (اللغة) ص ٣٤٩ (ترجمة الدواخلي والقصاص

(٢) الجاحظ : البيان والتبين جـ١ص ٨٦ - ٨٨ .

(٣) الجاحظ البيان والتبيين جـ١ص ٣٤٩ .

يشاركون العرب في روايه اللغة ، ويجلسون الى شيوخ اللغة والنحو . ويتصدر ناس منهم للتدريس ، بعد أن يستكملوا الأسباب التي ترفعهم الى مقام الشيوخ والاساتيذ . مر الشعبي يوماً بناس من الموالى يتذاكرون النحو ، فقال : « لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده » . (١)

وبرز من هؤلاء الموالى عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي ، الذى قال فيه محمد بن سلام : « كان أول من بعج النحو ، ومد القياس » (٢) ، وعيسى بن عمر الثقفي ، وقد أخذ عن ابن أبي اسحاق هذا ، وأخذ عنه الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ثم سيبويه ، وقد روى عنه فى عدة مواضع من كتابه

كانت هذه الدراسات فى اول أمرها عملا من الاعمال القرآنيه ، ثم ظهرت الحاجة اليها على انها غرض حيوى ، لا يستغنى عنها في الأمصار الاسلاميه التى تلاقت فيها العناصر ، وتفاعلت فيها اللغات ، وتضافرت جهود الدراسين لاعبائها وقد كللت تلك الجهود بالنجاح يوم أن استقلت هذه الدراسة عن جملة الاعمال القرآنية ، واصبحت ثقافة خاصة مستقلة ، أقبل عليها الدارسون لذاتها ، لا لأنها تخدم غرضاً دينياً ، كما كانت حالها فى بداية نشأتها .

فما نصيب اهل البصرة من هذا المجهود ؟ وما نصيب اهل الكوفة ؟

الواقع ان البصرة هي التي قامت بعبء هذا العمل منذ نشأته ، حتى أصبح خلقاً سوياً ، ومر زمن طويل قبل ان تشارك الكوفة فيه ، وهي انما اخذته عن البصرة (٣) ، وقد أخذته تاماً ناضجاً ، وأحدثت فيه تغييراً يتصل بالمنهج والتطبيق ، كما يأتي تفصيله .

وساعد البصرة على السبق في هذا الميدان ما كانت تنعم به من استقرار

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ٢ ص ٦٤ .

(٢) ابن سلام : طبقات الشعراء ص ١٠ .

(٣) فهرست ابن النديم ، ص ٩٦ .

سياسي نسبي ، ومن نهضة علمية اينعت ثمرتها في البصرة قبل الكوفة بزمن طويل ، بسبب انشغال أهل الكوفة بالميادين العسكرية والسياسية من جهة ، وتلاقي أصحاب المذاهب والنحل في البصرة من جهة أخرى ، وقد أدّى هذا التلاقي في البصرة الى ظهور حركة دينيه جديدة ، قامت على أساس من الجدل الديني ، ومناهضة المذاهب والأديان التي أخذت تعبث بكيان الاسلام ، وكان أصحاب هذه الحركة هم المعتزلة .

وكان النحو أداة فعالة في تقويم هذا الجدل والاستفادة منه ، وقد أقبل الدراسون عليه إقبالا ، اما العرب فلتقويم منطقهم ، واما الأعاجم فللاستفادة منه في تعلم العربية التي اضطروا ان يتعلموها لمشاركة العرب في حياتهم ودينهم ، وللعيش باطمئنان في ظل حكم عربي لغته الرسمية هي العربية .

وكانت عناية المعتزلة بالثقافات العربية ، وبالنحو ، فائقة ، لأنهم كانوا دعاة مقالة ، ورؤساء نحلة ، وكانوا يريدون الى الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء المذاهب ، وكانوا يرون أن لا بد من مقارعة أولئك وهؤلاء بالخطب البليغة ، والبيان الرفيع ، وان هذا وذاك يحتاج الى تمام الآلة ، وإحكام الصنعة .

قال الجاحظ — في اثناء تحدثه عن واصل بن عطاء — : «ومن أجل الحاجه الى حسن البيان ، واعطاء الحروف حقها من الفصاحة ، رام أبو حذيفة اسقاط الراء من كلامه ، وإخراجها من حروف منطقة » . (١)

وجد الناس على اختلاف أجناسهم في النحو ما يحقق لهم هذه الرغبات ، فأقبلوا عليه يتدارسونه ، فاكتملت لهم أسبابه ، وفرغوا من جمع أصوله برواية الأشعار والخطب واللغة وبالاتصال المباشر بالاعراب ، يسمعون منهم ، ويدونون ما يسمعون .

---

(١) الجاحظ البيان والتبيين ، ج ١ ص ٣٢ .

وكانت حلقات النحو يجلس إليها النحاة والادباء والشعراء ، وكان شيوخ الحلقات ممن ألم بشيء غير قليل من هذا وذاك ، وفرض النحاة أنفسهم حتى على الشعراء ، ونفر الشعراء منهم اول الامر وقاوموهم ، ولكنهم استسلموا لهم ، واضطروا أن يجاروهم طمعاً في تأييدهم ، لنيل الشهرة والتقرب من السلطان

وقد دار بين الخليل بن أحمد ، ومحمد بن مناذر ، الشاعر البصري ، كلام ، فقال له الخليل : « انما أنتم - معشر الشعراء - تبع لى ، وانا سكان السفينة ، إن قرظتكم ، ورضيت قولكم نفقتم ، وإلا كسدتم » . (١)

لذلك كانت البصرة مقصد الرواد لطلاب العلم من الدارسين ، وطلاب الشهرة من الشعراء ، كانت البصرة كذلك ، وليس في الكوفة من هذا ما يستحق الذكر ، اللهم الا قراءة القرآن وتفسيره ، والافتاء بما تضمنته آياته من أحكام ، تتصل بعبادات الناس ، ومعاملاتهم .

وشيء آخر ، كان في الكوفة أبرز منه في البصرة ، كان فيها رواة الاشعار والشعراء ، وكان فيها النسابون ، واصحاب الاخبار التي تتصل بأيام العرب ، وحياة الابطال .

أما الخطابة فقد تعاقب على منبرها خطباء العرب ، وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب ، وزياد بن أبيه ، وقد ترك علي بن أبي طالب للناس مجموعة خطبه تتناقلها الرواة متمثلة في اكثر ما جاء في « نهج البلاغة » .

واما الشعر فالكوفة هي التي حفظت لنا ذخائر العرب ، من مطولات ومقطعات ، تتصل بالحماسة وغيرها من الموضوعات التي كانت تهم العرب في حياتهم ومعاشهم . وقد وجد فيها من الشعراء مجموعة كبيرة لافتة ، ففيها من الشعراء : أبو زبيد الطائي ، الذى كان قد قدم الكوفة في ولاية الوليد بن عقبة ، وكان

---

(١) الاغاني جـ١٧ ص ١٦ .

نديما له . (١) والكميت بن زيد ، وكان عالماً بلغات العرب ، خبيراً بأيامها ، وقد سئل معاذ الهراء عن أشعر الناس ، فذكر جاهليين واسلاميين ، فلما سئل عن الكميت قال : « ذاك أشعر الاولين والآخرين » . (٢)

وكان في الكوفة «ثلاثة نفر ، يقال لهم الحمادون : حماد عجرد ، وحماد بن الزبرقان ، وحماد الراوية ، يتنادمون على الشراب ، ويتناشدون الأشعار ، ويتعاشرون معاشرة جميلة » (٣) ، وفيها غير هؤلاء : مطيع بن إياس ، ووالبة بن الحباب أستاذ أبي نواس ، وأبو نواس نفسه ، وأبو العتاهية ، وغيرهم .

وفي طليعة رجال الأدب والرواية في الكوفة : المفضل الضبي ، صاحب المفضليات ، الذي اجتمع على توثيقه أهل الكوفة ، روى عنه من البصريين ابو زيد الأنصاري (٤) ، مع ان اهل البصرة كانوا لا يروون من اهل الكوفه شيئاً .

ولعل السبب في عناية الكوفة بالأشعار ، ورواية الأدب يرجع الى أنها لا تزال تحتفظ بعادات العرب ، وتقاليدها الأولى ، وتغنيها بالبطولة ، وتفاخرها بالأبطال ، وذلك لأنها منزل العناصر العربية الأرستقراطية ، وموطن أمراء القبائل .

ومهما تكن منزلة الكوفة في هذا فقد شعرت بالحاجة الى الأخذ عن البصرة ، والتلمذة لها ، فيما كان يدور في معاهدها العلمية من معارف وثقافات ، لذلك كان كثير من رجال العلم الكوفيين يشدون الرحال الى حلقات الدرس فيها ، وكان بعض اهل العلم من البصريين يقصد الى الكوفة ، ويتصدر للتدريس فيها .

فالنحو اذن لم ينشأ في الكوفة ، وإنما وفد ، عليها من البصرة ، ونشره

---

(١) الاغاني جـ٤ ص ١٧٩ ، ١٨٠ .
(٢) عبد القادر البغدادي : خزانة الأدب جـ ١ ص ١٣٨ .
(٣) الأغاني جـ٦ ص ٧٤ . (بتصرف)
(٤) نزهة الألباء ص ٦٧ .

فيها بصريون جاءوا الى الكوفة ، واستوطنوها ، وكوفيون رجعوا من البصرة بعدما تلمذوا لشيوخها ، لينشروا بين الدارسين ما تعلموه هناك .

وشرعت الكوفة - منذ أوائل القرن الثامن للهجرة تقريباً - تنشىء لنفسها مدرسة ، وترسم لها منهجاً جديداً ، له طابع خاص ، أملته على الدارسين بيئة الكوفة ، ومناهج الدراسة التي نهجها القراء والمحدثون . وأخذت هذه المدرسة تنهج لنفسها سبلا جديدة ، حتى تم لها الاستقلال في أواسط هذا القرن ، على يد علي بن حمزة الكسائي ، وتلميذه يحيى بن زياد الفراء .

ولا نكاد نعرف في الكوفة نحوياً - بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة - قبل الكسائي ، ولكن القدماء - ولعلهم من الكوفيين - أبوا الا ان يكون لهم نحو متميز قديم ، او ان يكون لهم - على الأقل - نحاة قبل الكسائي الذي اخذ عن البصريين .

وقد ورد في كتب الطبقات أسماء لكوفيين زعموا أنهم كانوا من النحاة وأن مدرسة الكوفة النحوية كانت قد بدأت بهم ، ومن هؤلاء الذين ذكروا على أنهم من أوائل النحاة في الكوفة : معاذ الهراء ، وأبو جعفر الرواسي .

كذلك لا نكاد نرى أثراً لنحو كوفي متطور قبل الكسائي ، انتقل من البساطة الى التعقيد ، ومن مجرد خطرات جزئية الى مجموعة من الأصول العامة ، كما وجد ذلك في البصرة ، فقد شهدت البصرة منذ عهد أبي الأسود ، وقيامه بنقط المصحف نقطاً اعرابياً ، طبقات من الدراسين صدرت عنهم أقوال . ان لم تكن نحوية خالصة فمن الممكن ارجاعها الى النحو ، كما روي عن يحيى بن يعمر من أقوال كان يصحح بها لحناً وقع في كلام الحجاج ، مما هو معروف ، حتى إذا انتهى المطاف بالدارس الى عهد الخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وتلميذهما سيبويه وجد النحو ، وقد استكمل أدواته ، وأصبح دراسة ذات منهج خاص ، لها أصولها ، وقواعدها .

واذا كانت الدراسة اللغوية قد تطورت في البصرة ، حتى انتهت الى دراسة الاعرب ، أو النحو بمعناه الخاص ، فلم يكن حالها في الكوفة كذلك ، ولم يتهيأ في الكوفة ما تهيأ في البصرة ، مما مهد لتنظيم الدراسة اللغوية ، فان البصرة قد سبقت الى التحضر ، وحياة الاستقرار ، والاشتغال في العلوم ، والاستفادة من الثقافات الأجنبية ، التي وفدت عليها مع من وفد من عناصر ، فقد التقى فيها عرب وفرس وهنود ويونان ، والتقت النصرانية واليهودية والمجوسية والاسلام ، حيث تزدهر التجارة ، وتنشط الايدي العاملة لاستغلال الأراضي ، والقيام ببعض الصناعات .

في مثل هذه البيئة تلتمس الحياة العقلية المنظمة ، وتبدو بواكير العلوم المختلفة ، التي تحتاج اليها هذه الحياة المتحضرة .

ولم يكن سبق البصرة الى النهوض بالثقافات المختلفة محض اتفاق ، او طفرة ففيها تلاقت العقليات المختلفة ، وظهرت المذاهب الدينية والفلسفية ، وكان لتلاقيها تأثيره في الدراسات ، ومناهجها ، فقد مهدت هذه الفلسفات للانتفاع بالمنطق اليوناني (وفي البصرة ظهرت الترجمة الأولى لمنطق أرسطو ، ترجمه عن اليونانية أو الفارسية عبدالله بن المقفع ، أو ابنه محمد بن عبدالله بن المقفع) ، « وكان بين نحاة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين فسحوا السبيل للحكمة الاجنبية لكي تؤثر في مذاهبهم الكلامية » والشيعة والمعتزلة كانوا من أوائل المتكلمين

أما المعتزلة فأمرهم واضح لا يكاد الذين يؤرخون للحركات العقلية الاسلامية يختلفون في سبقهم الى الخوض في بحوث الكلام .

وأما الشيعة فهم كالمعتزلة من حيث سبقهم الى تناول موضوعات الكلام بالبحث فكان للامام جعفر بن محمد الصادق - وقد أدرك الدولتين - رأي معروف في أفعال الانسان ، وكان يذهب الى انه « لا جبر ولا تفويض ، ولكن امر

بين أمرين » . (١)

ومن متكلمي الشيعة القدماء ، الذين عاصروا الامام جعفر الصادق ، واخذ عنه — كما ذكر ابن النديم — : هشام بن الحكم البغدادي ، مولى بني شيبان ، ومحمد بن النعمان الأحول ، الذي تلقبه العامة بشيطان الطاق ، وتعرفه الخاصة بمؤمن الطاق وكان قد نزل طاق المحامل بالكوفة . (٢)

يضاف الى هذا أن الامام أبا هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية واخاه الحسن ابن محمد بن الحنفية كانا — كما ذكر الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق — اول من احدث مذهب الاعتزال واخترعه وان واصل بن عطاء الذى اظهر الاعتزال ، واشاعه ، انما اخذه عن ابي هاشم . (٣)

ومن السهل بعد هـــذا ان نتصور تأثير علم الكلام في النحو ، وشيوخ البصرة — وفي طليعتهم الخليل بن احمد — كانوا من المتكلمين ، سواء أكانوا من الشيعة أم من المعتزلة .

والواقع أن تأثير علم الكلام ، او الثقافة البصرية اليونانية انما ظهر في النحو في زمن مبكر ، منذ أواخر القرن الأول ، وأوائل القرن الثاني وهي الفترة التي ظهرت فيها الفلسفة الكلامية ظهوراً واضحاً ولم يكن الخليل بن أحمد أول من ظهر في نحوه تأثير هذه الثقافة الجديدة بميله الى القياس والتعليل فقد سبقه الى ذلك عبدالله بن أبي اسحاق (توفي سنة ١١٧ هـ) الذي قيل انه « كان شديد التجريد للقياس (٤) ويقل انه كان أشـــد تجريداً للقياس من أبي عمرو بن

---

١ — روايات م. رونلدسن : عقيدة الشيعة ص ١٤٣ .
٢ — فهرست ابن النديم ص ٧ ٨ من التكملة .
٣ — تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٣٨٧
٤ — التجريد للقياس : الاجتهاد فيه — ق —

الملاء » (١) ويقال « انه أول من علل العلل » (٢)

وذكر ابن سلام طبقات النحويين - كما كان هو يرى - حتى انتهى الى عبدالله بن أبي اسحاق فقال : « كان أول من بعج النحو ومد القياس والعلل » وروى عنه ما يؤيد ميله الى القياس وما يفهم منه انه كان إنما يقيس على الاكثر والأفشى فقد قيل ليونس بن حبيب : هل سمعت من ابن أبي إسحاق شيئاً ؟ قال نعم . قلت له : هل يقول أحد الصويق يعني السويق ؟ قال : نعم . عمرو بن تميم تقولها . وما تريد الى هذا ! عليك بباب من النحو يطرد وينقاس » . (٣)

وتأثير الكلام في بحوث اللغة لدى البصريين كان له اثر بعيد في انتقال الدراسات اللغوية من عهدها الفطري الى عهد أصبحت فيه تميل إلى الطابع العلمي الفلسفي وتجنح فيه الى تقعيد القواعد وتقنين القوانين.

ولم يكن هذا شأنها في الكوفة ، فلم يلحظ الدارس انها تطورت مثل هذا التطور، الذي شهده في البصرة ، ولكنه شهدها ، وشهد النحو خاصة منذ أول نشأته في الكوفة ، علما ذا أصول وقواعد ، مما يؤيد الاعتقاد بأن الكوفة كانت قد اخذت هذه الدراسة من البصرة أخذا ، وذلك عن طريق التلمذة المباشرة فأبو جعفر الرواسي ، وهو استاذ اهل الكوفة في زعمهم ، انما عرف بالبصرة ، كما قال المبرد (٤) وأخذ النحو عن عيسى بن عمر الثقفي (٥) ثم انتقل الى الكوفة، وأذاع فيها علم البصرة ، ولفت انظار الدارسين الى معاهدها ... والكسائي - فيما ذكر المؤرخون - كان قد اخذ

- ١- نزهة الالباء ص ٢٢ .
- ٢- نزهة الالباء ص ٢٣
- ٣- طبقات الشعراء ، ص ١٠ و ١١ .
- ٤- السيوطي : بغية الوعاة ص ٣٣
- ٥- الزبيدي : طبقات النحويين - « ابو جعفر الرواس »

عن أبي جعفر أستاذه الاول ، ثم انتقل الى البصرة ، فدرس على الخليل بن أحمد ، ثم درس كتاب سيبويه على أبي الحسن سعيد بن مسعدة الاخفش تلميذ الخليل وسيبويه .. والفراء - فيما ذكروا أيضاً - كان قد أخذ عن أبي جعفر ، وعن الكسائي ، وعن يونس بن حبيب البصري (١) ، ووجدت بعض نسخ الكتاب تحت وسادة الفراء فيما زعم الزبيدي .

٤ - منهج الدراسة في البصرة ومصادرها

عرضنا في ثنايا الفصول السابقة لمؤسس المدرسة البصرية ، ولرجالها البارزين ، الذين ينسب اليهم نشأتها ، وتكوين منهجها .

وفيما يأتي عرض موجز لها لا يتناول طبقاتها ، ولا تاريخ رجالها ، فليس هذا من موضوع الرسالة ، بل سأقتصر فيه على عرض المنهج الذي سارت عليه في تناول موضوعات دراستها عرضا موجزاً ، وذكر المصادر التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة ، ليتسنى لي آخر الامر ، وحين اعرض لمدرسة الكوفة ان اضاهي بين المدرستين ، وأوازن بين المنهجين .

* * *

نشأ في أذهان المسلمين منذ اوائل الفتوحات الاسلامية في البلاد الشرقية فكرة قداسة اللغة ، ولاسيما لغة القرآن ، لذلك كانوا يتجادلون ، ويكفر بعضهم بعضا حين يقرأ فريق حرفاً من القراءات لا يقره عليه الفريق الآخر

وكان العلماء الاولون ، وفي طليعتهم ابن عباس ، يذهبون الى ان اللغة توقيفية صدرت عن آدم بوحي من الله لانه تعالى « علم آدم الاسماء كلها » فقد قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : « علمه الاسماء كلها ، وهي هذه التي يتعارفها الناس ، من دابة وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الامم

---

١ - السيوطي : بغية الوعاة ص ٤٢٦

وغيرها » «١».

فهي اذن من خلق فاطر السماوات والارض وهو قادر على ان يجعلها منذ البداية كاملة لا تحتاج الى تعديل او اصلاح تؤدي وظيفتها — منذ البداية — كأحسن ما تكون التأدية ولا عجب بعد هذا أن نحاط اللغة بهالة من التقديس وأن يذهب أصحاب هذا الرأي الى أنها اللغة المثالية ، المتقنة الوضع وأن يفرضوا على الدارسين المحافظة على تلك الأشكال والصور مهملين كل اعتبار آخر يفترض في اللغة ظاهرة من الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين التطور متأثرة بالاستعمال مادة وصورة.

على ان الدارسين الأولين لم يعدموا فيهم من يلتفت الى أثر الاستعمال في اللغة والى طبيعية جانب منها لم يصدر عن وحي ولا إلهام إنما هو شيء خلقته الجماعات البشرية الأولى حين احتاجت الى التفاهم محاولة في أول الامر التعبير عما حولها بمحاكاة أصوات الطبيعة وما فيها من انسان وحيوان وجماد.

وقد جاء في الخصائص أنه «ذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد» . (٢)

---

١ — الآلوسي : روح المعاني جـ ١ ص ١٤٥ . ينسب هذا التفسير الى عبد الله بن عباس — وكان يعنى بالاسرائيليات — اخذ هذا التفسير من التوراة فقد جاء في الاصحاح الثاني من سفر التكوين : وجبل الرب الاله من الارض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها الى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها فدعا آدم باسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية.

٢ — الخصائص جـ ١ ص ٤٥ .

فهو يتحدث عن هذا الرأي كأنه رأي عرض له الدارسون قديماً فاذا أردت أن تتبع النحاة الاولين لم تجد احداً منهم كان يلمح هذا الرأي قبل الخليل ابن أحمد . ولست ازعم أن للخليل في هذا نظرية تامة التكوين ولكني أزعم أن هـــذه الفكرة كانت ماثلة في ذهنه فقد وصلت الينا عنه أقوال تؤيد زعمي هـــذا .

كان الخليل يقول : « صر الجندب صريراً وصرصر الاخطب صرصرة كأنهم توهموا في صوت الجندب مدا وتوهموا في صوت الأخطب ترجيعاً » . (١)

او قال : كأنهـــم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدا وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا : صرصر (٢)

وكان يقول أيضا : « يقولون : صل اللجام ؛ تمد اللام وتثقلها وقد ضعفتها في الصلصلة وهما جميعاً صوت اللجام فالتثقيل مد والتضعيف ترجيع » . (٣)

فقد ادرك الخليل أن الاختلاف بين اللفظين الدال أحدهما على صوت الجندب والدال ثانيهما على صوت البازي يرجع الى الاختلاف بين طبيعتي الصوتين وليس هذا الصوت الممتدفي (صرّ) الا استشعاراً بما في صوت الجندب من امتداد ولذلك حين لاحظوا التقطيع في صوت البازي جاءوا باللفظ الدال عليه وفيه تقطيع .

أما غير الخليل من النحاة واللغويين فلم اجد بينهم من مال الى هذا الرأي بل لقد مال عامتهم الى الرأي الذي قال به ابن عباس فقد قال ابو علي الفارسي : « هو من عند الله محتجا بقوله تعالى : وعلم آدم الاسماء كلها » (٤)

وكان ابن فارس يذهب الى هـذا ايضاً ويقول « ان لغة العرب توقيف

---

١ ـ تهذيب الازهري جـ ١ ٢٢ مخطوط تحت رقم ٩ لغة

٢ ـ الخصائص جـ ١ ص ٥٤٤

٣ ـ التهذيب للازهري جـ ١ ص ٢٢

٤ ـ الخصائص جـ ١ ص ٣٩

ودليل ذلك قوله جل ثناؤه : وعلم آدم الاسماء كلها » . (١) وكان ابن جني - في أحد رأييه - يميل الى هذا أيضاً . (٢)

وفكر الدارسون الأولون حتى توصلوا - بالاستعانة بما تأتى لهم من مرويات ، ظنوا أنها تمثل اللغة العربية تمثيلا صادقاً - الى أحكام لغوية ، طبعوها بطابع الشمول ، وكان لا بد ان يصطدموا بمسائل كثيرة لا تنطبق عليها أحكامهم ، فلجئوا الى القياس ، متخذين منه أداة لصنع اللغة ، وصنع أمثلتها ، وأوضاعها ، وصور تعبيرها ، ولما لم يسعفهم القياس بكل ما كانوا يريدون ، فلا زالت الكثرة الكاثرة من المسائل يستعصى عليهم اندراجها في أحكامهم العامة - لجئوا الى التأول ، والتأول البعيد الذي يخالفه الظاهر مخالفة بعيدة .

وبد لا من ان يكون القياس والتأول أداتين لتفسير اللغة كانا لديهم اداتين لصنع اللغة ، وخلق صورها ، وإيجاد صور من التعبير لم يكن يعرفها أصحاب اللغة أنفسهم ، حتى استحالت اللغة ، أو كادت ، الى مجموعة من القوانين التي افرغتها أدواتهم العقلية في قوالب معينة ثابتة ، ناسين ان اللغة - وان كانت أداة للفكر - ليست هي الفكر نفسه ، وليست أحكامها أحكامه ، فانها تخضع لعوامل نفسية ، واجتماعية ، وبيئية ، وناسين أيضاً ما للغة من تطور عضوي كسائر الكائنات الحية التي تتأثر بما حولها ، وتخضع للتطور ، كما يخضع له كل كائن حي . وبالغوا في اصطناع هاتين الأداتين ، فأخضعوا لهما كل نص ولو كان قرآنا ، إذا لم ينطو ظاهره تحت أحكامهم المصنوعة .

لقد ظهر القياس عند عيسى بن عمر الثقفي ، وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ، وهما - في رأينا - من الطبقة الأولى ، التي عرفت النحو بمعناه

---

(١) الصاحبي ص ٥ .

(٢) الخصائص جـ ١ ص ٤٥ .

الاصطلاحي ، وطها أقوال تدل على أنها كانا معنيين بالقياس (١) ، وأن فكرة اصطناع القياس أداة لصنع النحو ، وأصلا من أصوله قد داعبت أذهانها .

يضاف الى هذا ما زعمه ابن سلام من انه قال ليونس بن حبيب : « هل سمعت من ابن ابي اسحاق شيئاً؟ قال: نعم قلت له : هل يقول أحد : الصويق، يعني السويق ؟ قال نعم . عمرو بن تميم تقوطها ، وما تريد الى هذا ! عليك بباب من النحو يطرد ، وينقاس» . (٢)

ثم جاء (الخليل بن أحمد) فاعتد بأحكام العقل ، وعنى بالقياس على انه اصل من أصول الدراسة النحوية ، وكان ذلك اعلاناً بخروج النحو من اسلوبه الفطري القديم ، الذي جرت عليه الطبقات الأولى الى أسلوبه النظري الجديد ، او باتجاهه منهج المدرسة الكلامية ، لأن الخليل نفسه كان من أصحاب الكلام ، فلم يكن اصطناع القياس في عهد الخليل اذن طفرة ، وانما ظهرت الاستفادة منه في وقت مبكر ، وان لم يصطبغ اذ ذاك بالصبغة الفلسفية ، وكان ظهوره ، والاستفادة منه إيذاناً بدخول الدراسة اللغوية في عهد جديد .

* * *

منهج الفراء ومنهج المتكلمين :

ومنذ أوائل القرن الثامن انقسمت الدراسات طائفتين ، نهجت كل طائفة

---

(١) يرجع الى ما دار بين عبد الله بن أبي اسحاق ، وبين الفرزدق ، وما ذهب اليه الأول من قياس موال على غواش وجوار ، وتغليطه الفرزدق في اجرائها مجرى الممنوع من الصرف في جره بالفتحة .

(نزهة الالباء ص ٢٤)

والى ماذكره سيبويه من قياس عيمى بن عمر نصب (مطرا) في قول الشاعر :

سلام الله يامطراً عليها وليس عليك يامطر السلام

على نصب (يارجلا) ، بجعله اذا نون وطال كالنكرة . (الكتاب جـ١ ص٣١٣).

(٢) ابن سلام : طبقات الشعراء ص ٩١ .

منهما منهجاً خاصاً ، وأصبح الدارسون قسمين ، كل قسم ينتمي الى مدرسة خاصة ، لها خصائصها ومزاياها . اما المدرسة الأولى فهي مدرسة القراءة ، وأما المدرسة الثانية فهي مدرسة الكلام .

وأخص ما تمتاز به المدرسة الأولى هو الاعتماد على الرواية ، ويتضح هذا مما جاء عن الشعبي من أن « القراءة سنة ، فاقرءوا كما قرأ أولوكم » (١) ومما قاله الداني : من أن « أئمة القراءة لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الافشى في اللغة والأقيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل ، والرواية اذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير اليها » (٢)

وليست القراءة وحدها هي التي كانت تعتمد على الرواية ، بل كانت المعارف الدينية الاسلامية ، التي نشأت في المصرين كلها تنحو هذا النحو . وسبب ذلك كثرة القراء ، وحملة الحديث من الصحابة والتابعين من جهة ، وكون المعارف الاسلامية لاتزال في أولى درجات الرقي ، والعقليات الاسلامية قريبة العهد من أميتها ، وجاهليتها ، حديثة العهد بالاستقرار والحضارة من جهة اخرى . والدارسون في هذه الفترة لايعكفون من مناهج الدراسة إلا هذا المنهج الذي نسميه منهج المحدثين ، من اعتماد كلي على النقل ، واعتداد تام بالرواية .

وكان الحديث هو المادة الواسعة التي تشمل جميع الفروع ، ومنهجه هو المنهج العام الذي سيطر على دراسة تلك المعارف ، طوال القرن الأول ، الى أن أخذت المعارف تتحلل شيئاً فشيئاً ، فتنفصل الواحدة بعد الأخرى ، تحيط نفسها بشيء من الاستقلال ، تختلف درجاته بحسب طبائعها ، وما اتيح لها من

---

(١) ابن الجزري : غاية النهاية ج ١ ص ٣٥٠ .

(٢) ابن الجزري : النشر في القراءات العشر ج ١ ص ١٠ .

ظروف وملابسات .

وساعد على ذلك هذه البوادر الحضارية الجديدة التي ظهرت آثارها في المقليات الاسلامية عن طريق الدين والقرآن الكريم ، وما طرأ على حياة المسلمين من جديد ، بسبب مجاورتهم للشعوب الداخلة في الاسلام ، واحتكاكهم بأمم كان لها نصيب كبير في الحضارة ، وقدم ثابتة في الثقافة .

وأخص ماتمتاز به المدرسة الثانية : هو الاعتداد بالعقل ، وابرز خصائصها إصدار أحكام عقلية ، حتى في المجال الأدبي الفني ، كما كان شأنهم في تناول موضوعات البلاغة ، وليس أدلّ على عنايتهم بالأحكام العقلية ، من بناء قضاياهم على التحسين والتقبيح العقليين ، والحكم على الشيء بأنه حسن عقلا ، أو قبيح عقلا ، هو حكم نظري محض ، لأثر للفنية فيه .

وقد أخذ هذا المنهج يطغى على الدراسات المختلفة ، منذ أن ظهر المعتزلة ، واحتاجوا الى الفلسفة اليونانية ، والمنطق اليونانيّ للتسلح بها ضد خصومهم من أصحاب النحل والعقائد من غير المسلمين وكان هؤلاء قداستكملوا أدوات التسلح بالمنطق ، ووقفوا على فلسفات اليونان ، وكان الصراع بين هؤلاء والمعتزلة شديداً والجدال بين الفريقين محتدماً ، فأثر ذلك كله في البيئات الدراسية تأثيرا واضحاً ، تمثل في ظهور مدرسة الفقه القياسية ، ومدرسة النحو القياسية .

ونشب صراع داخلي بين أصحاب المدرستين الاسلاميتين ، أعني بين أصحاب الحديث ، وأصحاب الكلام ، فقد رأى المحدثون أن الزمام أفلت من أيديهم ، وأن كثيراً من المعارف التي كانت تخضع لسيطرتهم أخذت تخرج الى الانفصال ، وتنهج نهج أصحاب الكلام في إقلالهم من الرواية ، واعتدادهم بأحكام العقل ، فقاموا ضدها ، وأثاروها خصومة عنيفة .

خاصموا المتكلمين ، وهم أصحاب هذه (البدعة) ، وطالت الخصومة بينهما واشتدت وراح كل فريق يستند الى خليفة ، ويحتمي بسلطان ، ويسخر قواه

للتنكيل بصاحبه ، والتاريخ ملىء بما جرت هذه الخصومة من فظائع ازهقت أرواح كثير من الأبرياء .

وخاصموا الفقهاء ، لأنهم أخذوا يتحللون من سلطان الرواية ، ويقللون من رواية الحديث ، وأصبحت أحكامهم أكثرها يعزى إلى رأي أو قياس . .. فهذا أبو حنيفة زعيم مدرسة القياس في الفقه ، واليه ينسب هذا الاتجاه الجديد ، قد أدرك اربعة من الصحابة ، وهم : أنس بن مالك بالبصرة ، وعبد الله بن ابى أوفى بالكوفة ، وسهل بن سعد الساعدي بالمدينة وأبو الطفيل عامر بن وائل بمكة ولكنه لم يعن بأن يلقى أحداً منهم أو يأخذ شيئاً عنهم [1] وكانت هذه الخصومة على اشدها بين الحجازيين والعراقيين . [2]

وخاصموا النحاة - وأعنى بهم البصريين - لأنهم سلكوا مسلك الفقهاء أو مسلك أصحاب الكلام في الاعتداد بأحكام العقل ومهدوا السبيل للحكمة الأجنبية تؤثر في دراساتهم حتى سمي نحاة البصرة أهل المنطق [3]

وقاومهم هؤلاء لأنهم وإن عنوا بالرواية اللغوية - لم يكونوا ليجعلوا منها أساساً لمنهجهم كالمحدثين ولكنهم استعانوا بها على استخراج أصولهم واستنباط قواعدهم واهدروا كثيراً من هذه الروايات التي لاتخضع لاصولهم وعدوها شواذ تحفظ ولا يقاس عليها .

واستتبع اتجاههم هذا أن يغزوا القراء ويضعفوا قراءاتهم ويتهموهم بالجهل بأصول العربية كما فعلوا مع ابن عامر مقرىء أهل الشام وحمزة بن حبيب الزيات مقرىء أهل الكوفة ونافع مقرىء أهل المدينة مع العلم بأن القراء لا يعملون بشيء

---

(١) تاريخ أبي الفداء جـ ٢ ص ٥

(٢) ضحى الاسلام ١٥١ - ١٥٧ ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٣) تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٣٨ .

من حروف القرآن على الاغلب والاقيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر والاصح في النقل ، فاذا ثبت عندهم رواية قبلوها ولم يحل دون قبولها خروجها على القياس ومناظائرها لحكم الأغلب ، وذلك لأن القراءة عندهم سنة متبعة والاسناد هو محور القبول والرفض فما صح منه قبلوه ولو تعارض مع مقاييس النحاة ومالم يصح رفضوه ولو وافق أصولهم .

والنحاة إذا قاوموا القراء فقد قاوموا المحدثين لأن منهج أولئك هو هو منهج هؤلاء كل ماعندهم نقل صحيح ، أو رواية موثوق بسندها ، فاذا سلم السند بسلامة رواته قبلوه ، ولم يعنوا بعد ذلك بسلامة الحديث من التناقض المنطقي .

لهذا استبعد النحاة الحديث عن نطاق دراستهم ، ولم يستشهدوا بشيء من متنه على صحة قواعدهم ، وكان تجويز الرواية بالمعنى — في زعم النحاة — هو السبب الذي دعا النحاة أن يتركو الاستشهاد به ، لأن كثيراً من الرواة لم يكونوا عرباً بالطبع ، ولم يتعلموا لغة العرب الا بصناعة الاعراب ، فوقع اللحن في مرويانهم ، وان لم يتعمدوه .

* * *

مصادر الدراسة عند البصريين :

وخيل للدراسين البصريين أنهم قد استكملوا أدوات الدرس بجمع المواد الأولى من مرويات في الشعر والأدب واللغة ، بعد أن وضعوا لها « أطلسهم » اللغوي وحددوا فيه مجالي الفصاحة ، ونصوا فيه على القبائل التي ينبغي الاخذ منهـــا

وجملة المصادر التي عني النحاة البصريون بالاخذ منها هي :

١ القرآن الكريم ، وهو اصدق مرجع ، واصح مصدر يرجع النحاة

اليه في تقنين القوانين ، واستخراج الأصول ، لأن العربية لم تشهد كتاباً أحيط بالعناية ، واكتنف بالرعاية منذ زمن مبكر ، فحوفظ على تراكيبه ، وأحصيت كلماته وحروفه ، وكيفية ترتيله بلهجاته مع اتقان متناه في التلقين ، ودقة بالغة في الاخذ والأداء - مثل القرآن الكريم .

٢ - والشعر الجاهلي والاسلامي ، وقد استشهدوا بشعر جرير والفرزدق والحجاج ورؤبة وأبي النجم ، وعدوا أيضاً بشار بن برد ، فاستشهدوا بشعره[١]

ويذهب السيوطي - مستنداً إلى ما رواه ثعلب عن الاصمعي - الى أن إبراهيم بن هرمة (ولد سنة تسعين للهجرة ، وعمر طويلا) حتى اجتاز منتصف القرن الثاني) آخر من يحتج به .[٢] فهم يستشهدون على وجه التقريب بأشعار المحدثين الذين عاشوا حتى منتصف القرن الثاني للهجرة .

٣ - الفصحاء من العرب ، وهم سكان البادية الذين بعدوا عن التأثر بلغات أجنبية ، والذين ينتمون في الغالب الى قيس وتميم وأسد وهذيل وكنانة وطيء ، او بعبارة أوضح ، هم الذين كانوا يسكنون أواسط بلاد العرب ، وكانوا أكثر توغلا في البداوة ، وأبعد عن الاتصال بالأقاليم والأرياف .

والفصحاء من غير العرب أيضاً ، ممن صحت سلائقهم ، وأطمأن العلماء الى قوة ملكاتهم ، كالحسن البصري الذي قال فيه أبو عمرو بن العلاء : « ما رأيت أفصح من الحسن البصري والحجاج بن يوسف الثقفي » ، فقيل له فأيهما أفصح ؟ قال الحسن .[٣] . . وكأبي علي الأسواري ، وهو عمرو بن قائد الذي جلس بعظ في مسجده نحو ست وثلاثين سنة ، والذي كان يونس بن حبيب يسمع منه

---

(١) عبد القادر البغدادي : خزانة الادب جـ ١ ص ٢٠ .

(٢) السيوطي : الاقتراح ص ٢٢ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ١٨٩ - باريس -

كلام العرب ، ويحتج به . (١)

٤ - الامثال ، وما جرى مجراها من عبارات قصيرة حفظها الاستعمال ، وشاعت على الالسنة ، كقول العرب : الصيف ضيعت اللبن ، رجع بخفي حنين ، أوهمتهم سباً وأودوا بالابل ، ثمرة خير من جرادة ، الى غير ذلك مما يطمأن الى صحته ، وصحة الاستشاد به .

أما الحديث فلم يجوز اللغويون والنحاة الأولون ، كأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ، والخليل بن أحمد من البصريين ، والكسائي وهشام والفراء وغيرهم من الكوفيين - الاستشهاد به في النحو ، وحاكاهم المتاخرون من بغداد والاندلس ، اللهم إلا جماعة منهم في مقدمتهم ابن مالك وأبو حيان النحوي الغرناطي .

* * *

نحن لا ننكر ما لقيه علماء البصرة الأولون من عنت شديد في سبيل الحصول على النصوص الأدبية واللغوية ، إلا انهم أخطئوا أخطاء منهجية ، لا غنى لنا عن ذكرها .

فقد أخطئوا لأنهم اعتبروا اللغة العربية بما فيها من لهجات مختلفة لهجة ، مع ان القبائل كانت تختلف فيما بينها اختلافاً واضحاً في الالفاظ والاعراب ، كما كانوا هم انفسهم يصرحون بذلك بين حين وآخر فيقول بعضهم مثلا : ان استعمال المثنى بالالف مطلقاً لغة قوم كذا وإن اعراب الأسماء الخمسة بالحركات لغة بني فلان وهكذا .. ولكنهم مع أنهم كانوا يعرفون ذلك لم يحاولوا ترتيب أي اثر عليه .

وأخطئوا لأنهم لم يستكملوا استقراءاتهم قبل أن يضعوا أصولهم . ومن المعلوم أنه ما لم تستكمل لا يستطاع الاطمئنان الى صحة النتائج التي وصلوا اليها ولا الى صحة المنهج الذي عقدوا عليه دراستهم ولو كانوا استكملوا استقراءاتهم

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٤٦ .

إذن لتجنبوا كثيراً مما وقعوا فيه من ارتباك ، وما تكلفوا فيه من تأويل وإذن لما اضطروا الى ان يغلّطوا نصوصا صحيحة كما فعلوا مع قراءات صحيحة مقبولة معتبرة عند أصحاب القراءات :

كما فعلوا مع عبدالله بن عامر مقرئ أهل الشام فقد غلطوه في قراءته قوله تعالى : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم » بنصب (أولادهم) وجر (شركائهم) لأنهم لا يجوزون الفصل بين المضاف والمضاف اليه الا في ضرورة الشعر مع أنه أحد القراء السبعة وقراءته متصلة السند كما يقول المعنيون بالقراءات .

وكما فعلوا مع حمزة بن حبيب الزيات مقرئ أهل الكوفة وأحد القراء السبعة، فقد غلطوه أيضاً في قراءته قوله تعالى : « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام » بكسر الميم لأنهم لا يجوزون العطف على الضمير المجرور إلا باعادة الجار إلا في ضرورة قبيحة كما يقولون مع أن هذه القراءة - بالاضافة الى أنها لحمزة بن حبيب - كان قد قرأ بها ابن عباس والحسن البصري .

وكما فعلوا مع نافع مقرئ أهل المدينة وأحد القراء السبعة فقد غلطوه في قراءته قوله تعالى : « لهم فيها معائش » بهمز معائش لأنهم كانوا يرون أنه إذا كان المدّ أصليا امتنع قلبه همزة مثل : معايب ومعاون فلا يقال فيهما : معائب ومعائن .

مع أن « أئمة القراءة لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية بل على الاثبت في الأثر والأصح في النقل » وذلك لأن القراءة عندهم سنّة يلزم اتباعها ولو عارضت الأفشى وخرجت على الاقيس .

وأخطئوا في أنهم عزلوا جانباً كبيراً من اللهجات واللغات فأقصوها عن مجال البحث والدرس فلم يعتدوا الا بما كان في كبد الصحراء من لهجات الاعراب الذين لم يجاوروا الأرياف والأمصار ، فاستبعدوا لغات القبائل المجاورة لليمن ولمصر

وللشام وللعراق ولسواحل الجزيرة العربية المطلة على الخليج الفارسي لأنها - كما كانوا يزعمون - كانت أبعد عن الفصاحة مما كان منها في كبد الصحراء بعيدة عن ملابسات الحضارة، وضيقوا مجال بحوثهم فقصروا الاخذ على بعض القبائل العربية فقد ذكر السيوطي : ان ابا نصر الفارابي قال في كتابه المسمى بالالفاظ والحروف :

« إن الذين عنهم نقلت العربية ، وبهم اقتدي ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب ، هم : قيس وتميم وأسد ، فأن هؤلاء هم الذين عنهم اكثر ما اخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب ، وفي الاعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ، فأنه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ، ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فانه لم يؤخذ لا عن لخم ولا عن جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ولا عن قضاعة وغسان واياد لمجاورتهم أهل الشام واكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ولا عن تغلب واليمن فأنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ولا عن بكر ، لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولا عن أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا عن ثقيف واهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا عن حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا عنهم صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم »(١)

وأبعدوا أيضاً عن مجال بحوثهم لغة الاعراب الذين هاجروا الى الامصار وانتقدوا شعر شعرائهم الذين كانوا يقولون الشعر بلغة أقوامهم ، ولم ننس ما كان بين عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي ، والفرزدق من ملاحاة .. وليس بعيداً عنا ما فعله السيوطي - ناقلا عن علماء اللغة والنحو - من عقد باب لمعرفة أغلاط العرب

---

(١) السيوطي : المزهر ، ج ١ ص ١٢٨ .

ذكر فيه أقوالا كثيرة لنحاة ولغويين، أجازوا لأنفسهم تغليط أقوام هم أصحاب اللغة التي يدرسون نحوها، كما فعل أبو جعفر النحاس فقد عاب على زهير بن أبي سلمى قوله :

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

وزعم أنه يريد : كأحمر ثمود، فغلط .

وكما فعلوا في تغليطهم قولهم : حلأت السويق، ورثأت زوجي بأبيات، واستلأمت الحجر.(١)

وكان ابن فارس يعتذر لهم فيقول : « ما جعل الله الشعراء معصومين، يوقون الغلط والخطأ، فما صح من شعرهم فمقبول، وما أبته العربية وأصولها فمردود »، كقوله :

ألم يأتيك والانباء تنمى

وقوله : لما جفا إخوانه مصعبا

وقوله : قفا عند منا تعرفان ربوع

فكله غلط وخطأ ».(٢)

ولا نرى هذا الا لغو الكلام . انهم يجهلون أن اللغة سليقة وطبيعة ويجهلون أن صاحب اللغة لا يغلط في لغته لانها جزء من حياته التي فطر عليها وعادة من عاداته التي نشأ عليها واذا كان الجاهليون يغلطون والمخضرمون يغلطون والاسلاميون يغلطون فعلى من بعد هؤلاء يعتمد النحاة ؟؟ وبماذا يحتجون ؟ ومن أين جاءوا بهذه الاصول التي وضعوها وهذه القواعد التي استنبطوها ؟ ألم يستنبطوها من كلام العرب الذين كان هؤلاء الذين يغلطون منهم ؟

---

(١) السيوطي : المزهر، جـ ٢ ص ٣١٠ .

(٢) الصاحبي لابن فارس ص ٢٣١ .

وإذا عزلوا من مجال الاستشهاد حواضر الحجاز التي نزل القرآن بلغتها لاتصالها بالروم والفرس والهنود ، واللخميين لمجاورتهم أهل الشام ، وتغلب واليمن لانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، وبكر لانهم كانوا يجاورون الفرس ، وعبد القيس ، وأزد عمان ، لانهم كانوا بالبحرين يخالطون الهنود والفرس المقيمين بينهم وأهل اليمن لمخالطتهم الهنود والاحباش وبني حنيفة وثقيفا وأهل الطائف لمخالطتهم تجار العرب ، فماذا تبقى بعد ذلك ؟؟ وهل القبائل التي قصر النحاة واللغويون الاخذ عليهم من ذكرهم الفارابي تمثل العرب جميعا ، أو تمثل لغتها لغات العرب كلها تمثيلا صادقاً ، وهي جزء ضئيل من جموعهم المنتشرة في أنحاء الجزيرة العربية في شمالها وجنوبها ، وفي شرقها وغربها ؟ وهل بعد هذا يصح لهم أن يزعموا أنهم وضعوا أيديهم على الاغلب ، فاستنبطوا منه أحكامهم ؟ أو أن يزعموا أن هذا النحو الذي وصلوا اليه ، والفوا الكتب فيه هو نحو العربية ، وميزانها الذي يزنون به لهجات العربية جميعاً ؟ وهل يجدون — أعني البصريين — مسوغا أن يقولوا مفتخرين على الكوفيين : « نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب ، وأكلة اليرابيع وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السواد أصحاب الكواميخ وأكلة الشواريز » . (١)

على أنهم ماعتموا أن ناقضوا أنفسهم فاستشهدوا بشعر عدي بن زيد والكميت والطرماح وجرير والفرزدق وهم من سكان الامصار .

واستشهدوا بأقوال الموالي وكان الجاحظ يقول — حين عرض لذكر أبي علي عمرو بن قائد الاسواري القاص البصري المعروف — : « كان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ويحتج به » . (٢)

---

(١) السيرافي : اخبار النحويين النحويين ص ٩٠ بيروت

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٣٤٧ .

واستشهدوا بشعر بشار ، وهو - مع أنه مولى - لم يذق عيشة البدو ، ولم يبرح الحاضرة الا قليلا .

ولو كان مقياس الفصاحة هو الانعزال في كبد الصحراء وعدم الاتصال بالأجانب لكانت لغة قريش أبعد اللغات عن الفصاحة ولا قائل بهذا بل لقد أجمعت كلمتهم على أن قريشاً أفصح العرب وأن لهجتهم أصفى اللهجات

قال ابن فارس : « أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً افصح العرب السنة وأصفاهم لغة » . (١)

وذكر السيوطي قولا للفرا جاء فيه : « كانت العرب تحضر الموسم في كل عام ، ويحج البيت في الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات العرب ، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب ، وصارت لغتهم من مستبشع اللغات ، ومستقبح الالفاظ » . (٢)

واتصال قريش بالقبائل العربية المختلفة من جهة ، وبالامم الاجنبية من جهة أخرى ، اتصال قديم ، يدل عليه ماجاء في القرآن من كلمات أجنبية ، فارسية ، ويونانية ، ونبطية . (٣)

مع أن العرب إذا التقطوا كلمة أجنبية أخضعوها لقوانين لغتهم غالباً ، كما فعلوا في كلمات كثيرة ، مثل « زرجون » وهي الخمر ، واشتقوا منها ، فقالوا : مزرجن ، ومثل : لجام وقد اشتقوا منه : الالجام ، وألجمه ، وقالوا : فرس ملجم ، ومثل : بهرج « وأصله من قولهم : بهرج ، وهو معرب » ومثل :

---

(١) الصاحبي ص ٢٣ .

(٢) المزهر ج ١ ص ١٣٣

(٣) راجع كتاب « اللغات في القرآن » ، وهو ماحدث به اسماعيل بن عمرو المصري المتوفى سنة ٢٩٤ هـ عن ابن عباس ، والفصل الذي عقده السيوطي في المزهر ، وهو (معرفة المعرب) ج ١ ص ١٥٩ فما بعدها وضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

« نوروز » ومعناه : اليوم الجديد وقد اشتقوا منه الفعل « نورز » وقيل نورزونا بنوروزكم (١) ومثل : زنديق وديوان ودرهم فقد اشتقوا منها وقالوا : زندق وتزندق ودون تدوينا ودرهمت الحبازى إذا صارت كالدراهم . (٢)

ولا ضير من استعارة الكلمات الأجنبية اذا كانت تذوب في الاستعمال ، وتخضع للقوانين ، ولا بنا في ذلك فصاحتها ، فلبست العبرة فى الفاظ استعيرت لتؤدي وظيفة من الوظائف التعبيرية ، بل العبرة في ملكة التعبير ، والقدرة على الافهام ، وسلامة الاسلوب العربي الأصيل .

وأخطئوا ،لانهم أبعدوا جانباً مهامن المصادر اللغوية ، وهو الحديث ، فلم يرضوا الاستشهاد به ، لأنهم زعموا ان كثيراً من رواته كانوا من الموالى ، وهم عرب بالتعلم ، لا بالسليقة ، والطبع ، ولا يؤمن على الحديث ان يقع فيه لحن ، أو تصحيف .

مع انهم لو أنصفوا لعدلوا عما ذهبوا اليه ، لأنهم كانوا يعلمون مدى حرص المحدثين على سلامة الأحاديث ، ومدى ما قاموا به في سبيل المحافظة عليها ، وكان المحدثون ، ولا سيما المتاخرون منهم ، من الدقة بحيث يستبعد عن صنيعهم كثير من الشكوك التى أقامها النحاة عقبات فى طريق الاستشهاد بها ، والأخذ منها . وقد ذكرنا أنهم كانوا لا يتورعون من الاستشهاد بكلام ناس من الموالي ، أمثال الحسن البصري ، وأبي علي عمرو بن قائد الأسواري ، وغيرهما .

يضاف الى ذلك أنهم لو سمعوا سيبويه يروى نصاً لما ترددوا في الأخذ به ، لأن سيبويه ثقة وهو إنما يروى نصاً لغوياً لا علاقة له بحكم من أحكام الدين فما بالك بقوم كانوا يحرصون أشد الحرص على سلامة الأحاديث وكانوا

---

(١) راجع الفصل الذي عقده السيوطى فى المزهر جـ ١ ص ١٦٧ وهو ذكر الفاظ شك في أنها عربية أو معربة) .

(٢) أحمد أمين : ضحى الأسلام جـ٢ ص ٢٥٠ .

أشد ما يكونون تحرجاً ان يحرفوا نصاً او يغيروا شيئاً في متن

روى السيوطي عن ابن خالويه في شرح الفصيح ما نصه : «كان الفراء يجيز كسر النون في شتان تشبيها بسيان» وهو خطأ بالاجماع . فان قيل : الفراء ثقة ، ولعله سمعه ، فالجواب :ان كان الفراء قاله قياساً فقد أخطأ القياس، وان كان سمعه من عربي فان الغلط على ذلك العربي ، لأنه خالف سائر العرب ، وأتى بلغة مرغوب عنها» . (١)

فهم كما ترى ، يثقون بسيبويه والفراء وأمثالهما في نقل الروايات اللغوية ، ولا يتوهمون في أمثالهما الخطأ ، ولم يتوانوا ان يغلطوا العرب أنفسهم ، اذ انقلا عنهم شيئاً ، وكان منافياً لأوضاعهم وأصولهم ، ولا يثقون بعامة المحدثين ، الذين عرف عنهم الحرص على سلامة النصوص الدينية ، والمبالغة في التحرج من أن يغيروا نصاً ، أو يحرفوه .

هذا مع ان الذين كانوا يروون بالمعنى ـ في أغلب الظن ـ إنما هم العرب الذين كانوا يعتدون بسلامة سلائقهم . أما الموالي الذين لم يأخذوا بأسباب العربية فهم أبعد ما يكونون عن ان يتصرفوا في متون الأحاديث .

فاذا رجح الدارس ان يكون الراوون بالمعنى إنما هم العرب فما الذي يمنع من ان يأخذ عنهم ؟ لأنهم عرب : وقد صحت سلائقهم ، فاذا أخذوا عنهم فانما يأخذون عن عرب يصح الاستشهاد بأقوالهم ، وبما يجري على ألسنتهم ، وهم ـ أعني النحاة ـ إنما يأخذون عن العرب ألفاظهم وتعبيراتهم ، فليكن هذا من ذاك ، وليكن كلام هؤلاء المحدثين مصدراً من المصادر العربية ، لأنهم أصحاب طبائعهم وملكات ، ولا يزالون يتعلقون بأسباب الحياة العربية الخالصة

ومن الادعاء على الواقع ان يستبعدوا من الاستشهاد ما ورد من أحاديث

---

(١) السيوطي : مطبعة السعادة ج٢ ص ٣١٤ .

على لسان قوم من رجال العصر الأول ، شهد بحرصهم على الأحاديث التي يروونها ما أثر عنهم في كتب الطبقات والتراجم من أقوال تتداعى أمامها ادعاءات النحاة ومخاوفهم المزعومة على مصير العربية إن اعتمدوا في تصحيحها على الاستشهاد بمروياتهم .

فمن رواة الحديث في ذلك العصر : عامر بن شراحيل الشعبي ، الذي قال عنه ابن عياش الكوفي لمناظره في حضرة أبي العباس : « وأين أنت عمن لم ترعينك مثله في زمانه ، من أصحاب النبي ، ولا أحفظ لما سمع ولا أفقه في الدين ، ولا أصدق في الحديث ، ولا أعرف بمغازي النبي ص ، وأيام العرب ، وحدود الاسلام والفرائض ، والغريب ، والشعر ولا أوصف لكل أمر من عامر ابن شراحيل الشعبي» . (١)

والذي تحدث عنه الجاحظ في اثناء تحدثه عن عبدالله بن شبرمة ، فقال : « كان ـ يعني عبدالله بن شبرمة ـ فقيها ، عالما ، قاضياً ، وكان راوية شاعراً ، وكان خطيباً ناسكاً ، وكان حاضر الجواب مفوها ، وكان لاجتماع هذه الخصال فيه يشبه بعامر الشعبي » . (٢)

ومن رواة الحديث في ذلك العصر أيضاً : حماد بن سلمة الذي قال فيه اليزيدي :

يا طالب النحو ألا فابكه بعد أبي عمرو وحماد

والذي كان يقول : « من لحن في حديثي فقد كذب علي » (٣) . وقصته مع سيبويه معروفة ، وكان المترجمون لسيبويه يزعمون أنها كانت الدافع الذي دفع سيبويه الى تعلم النحو ، فقد قالوا : « كان سيبويه يستملي على حماد ، فقال

---

(١) ابن الفقيه : البلدان ص ١٧١ (ليدن) .
(٣) الجاحظ : البيان والتبين ج١ ص٣٢٣ .
(٢) السيرافي : اخبار النحويين البصريين ص ٤٣

حماد يوماً : قال رسول الله (ص) : ما أحد من أصحابي إلا وقد أخذت عليه ليس ابا الدرداء . فقال سيبويه : ليس ابو الدرداء فقال حماد : لحنت يا سيبويه فقال سيبويه : لاجرم لأطلبن علما لا تلحنني فيه ابداً » .(١)

ومن رواة الحديث في ذلك العصر : المحدث الفقيه ايوب السختياني الذي يقول فيه الحسن البصري : « ايوب سيد شباب اهل البصرة » (٢) والذي تلمذ له الخليل بن احمد فرغب بتعاليمه وهدايته عن خارجيته التي كان قد نشأ عليها ، والذي كان يقول : «تعلموا النحو فانه جمال الوضيع وتركه هجنة للشريف » (٣)

وامثال هؤلاء كثير من المحدثين الذين لم يكونوا يحرصون على صحة الأحاديث التي يحترمون نصوصها حسب ولكنهم كانوا يحرصون على سلامة ألسنتهم من اللحن إذا رجعوا الى أنفسهم وتحدثوا في مجالسهم أيضاً بل كان يؤذيهم ويسوءهم ان يسمعوا الحنا وكانوا يوصون الناس بالرجوع الى النحو لان تعلمه جمال والاعراض عنه هجنة .

فترك الاستشهاد بالاحاديث التي يرويها هؤلاء وامثالهم خسارة كبيرة انزلها بالعربية تقهر النحاة وتخذلهم .

ولا يسع الدارس الا الاطمئنان الى سلامة ما ذهب اليه ابن مالك ومن شايعه في اعتبار الاحاديث من المصادر التي يعتمد اللغوي والنحوي عليها .

على ان بعض النحاة قد وقف بين الفريقين ، بين الفريق المانع مطلقاً وهم النحاة الاولون ، والفريق المثبت مطلقاً وهم ابن مالك وابو حيان ومن تابعهما - موقفاً وسطا « فجوزوا الاحتجاج بالأحاديث التي اعتني بنقل ألفاظها » (٤)

---

(١) السيرافي : اخبار النحويين البصريين . ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ هامش ص ١٥٤ .

(٣) الجاحظ البيان والتبيين جـ ٢ ص ٢٣٣ .

(٤) عبد القادر البغدادي : خزانة الأدب : المقدمة .

وشايعه السيوطي فقال : « وأما كلامه صلى الله عليه وسلم ، فيستدل منه بما ثبت أنه قاله على اللفظ المروي ، وذلك نادر جداً ، انما يوجد في الأحاديث القصار » (١)

ثم إن الادباء ، ورواة اللغة كانوا قد انتبهوا إلى كذب بعض الرواة فنصوا على الموثوق به منهم ، وغير الموثوق به متأثرين في ذلك بأصحاب الاحاديث ، فكان ينبغي على علمـــاء العربية أن يصنفوا رواة الحديث من زوايا اعمالهم وتخصصهم فينصوا على من صحت ملكته منهم فيقبلوا روايته وينصوا على من لم تصلح ملكته فيرفضوا روايته . إنهم لو فعلوا ذلك لوجدوا انفسهم امام طائفة كبيرة من النصوص تصلح أن تكون من المصادر التي يرجعون اليها في تدوين أحكامهم ولسلم لهم المنهج باستكمال شرائطه ولكنهـم لم يفعلوا ذلك ومضوا في شأنهم سادرين .

وأخطئوا أيضاً لأنهم اعتبروا أصول اللغة كأصول المنطق لها من العموم والشمول ما لأصول المنطق من عموم وشمول ، ولهذا وقعوا في التناقضات وواجهوا كثيرا من المشكلات حين اعترضتهم طائفة كبيرة من النصوص لم تتفق مع أصولهم الموضوعة .

---

(١) عبد القادر البغدادي : خزانة الادب: المقدمة